

السعر: 100 دج رقم الإيداع القانوني: 3623-2006 ISSN: 1112-6825

السنة الثالثة - العدد السابع عشر - ذو القعدة/ ذو الحجة 1430 هـ الموافق لـ نوفمبر / ديسمبر 2009 م



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام

نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد

ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»

وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: (021) 51 94 63

المراسلات:

ص ب 640 ـ 16008 ـ الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:

جوال: (0661) 62 53 08

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.

تجدون في هذا العدد....



الجد واللعب

التحرير

إنَّ من قلَّة التَّوفيق أن لا يميِّز المرء حقائق الأشياء ومراتبها ومنازلها، فلا يميز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين السنة والبدعة، وبين الأمور المهمات والأمور المهملات، ثم بين مراتب الأشياء كخير الخيرين، وشر الشرين أيُّهما يقدم فيؤتى، وأيُّهما يؤخر فيترك، وبين ما يجب أن تشغل به الأوقات والأعمار، وما ينبغي أن تصرف عنه الأنظار، فالموفَّق من أنزل كلَّ شيء منزلتَه، ووضع كلَّ أمر موضعَه، وأعطى كل شيء حقه، فلا يجعل الجد لعبا، كما لا يحوِّل اللعب جدًّا: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾ [الأنعام].

وإن من عجائب هذا الزمن والعجائب فيه جمة، أن صار اللعب يحظى بعناية خاصة، وبرعاية فائقة، وتنفق في سبيله الأموال الطائلة، وتسخر له الوسائل الضخمة الهائلة، واللاعبون هم «الأبطال»، وهم «النجوم»، وهم «المحاربون» ..!!؛ فاللعب لم يعد لعبا فحسب؛ بل صار له شأن آخر، تنشأ له الأكاديميات، وتوضع له الخطط والسياسات، وصار عند الساسة من الأولويات، لأنه أضحى مسكِّنا ومهدِّئا للجماهير الغفيرة، وجامعا للقلوب المتنافرة، وسببا لتقوية اللحمة بين المجتمع الواحد، وإن العاقل ليعجب مما آل إليه الحال؛ إذ كيف يتصور في أمة أكرمها الله تعالى بأعظم شريعة وأتم دين وأكمله، وفيه كل أسباب التآلف والاجتماع والوحدة، ثم يؤول بها الحال ألا تجد ما تجتمع وتتوحد عليه سوى اللعب؛ إن مثل هذا الاجتماع لا يفرح به كثيرا، لأن اللعب كالوهم والحلم يلهو به المرء قليلا ثم سرعان ما تنقضي نشوته فيعود إلى الحقيقة واليقظة، فالأمة تجتمع وتتماسك إذا جمعت قلوبها على التوحيد والاتباع، وقد ساد أسلافنا العالم لما عمرت القلوب بالعلم والإيمان، فجادت العقول والقرائح بأنواع من العلوم والاختراعات والابتكارات التي أذهلت الأمم؛ واليوم يراد بنا أن نعكف على اللهو واللعب، وننشغل عما لأجله خُلقنا وهو عبادة الله وحده، فنعقد الأمل على أقدام لاعبة، لتعيد أمجادا لنا غائبة؛ ألا فليُعلم أنَّ اللعب لا يبني دولة، ولا يشيد حضارة، ولا يثبِّت مجدا، ولا يحفظ وحدة!!

وإن من المستهجن القبيح أن يتحوَّل اللعب إلى هوس يصل بصاحبه إلى حد التقديس والوله، لا يصبح ولا يمسي إلا على أخبار اللعب، وأحوال اللاعبين، وأحداث الملاعب، لا يغادر شاردة ولا واردة، يهون عنده كل شيء في سبيل مشاهدة اللعبة، ولو بارتكابه للجريمة العظمى والبلية الكبرى وهو ترك الصلاة في وقتها، وإن أقامها بين

الشوطين فعلى عجل، وخالية من الخشوع والوجل، يخشى أن تفوته لقطة أو سقطة أو قذفة؛ ومن التردي الذي وصل إليه عشاق اللعب أن صحيفة سيارة نشرت في عدد لها نصيحة من جمع من الأطباء ينصحون من كان مصابا بضعف في قلبه أن يتجنب متابعة اللعبة حتى لا يتوقف قلبه عن النبض من شدة الفرح أو من شدة الحزن، كما حدث قريبا أن رجلا (مشجّعا) مات من نوبة قلبية من شدَّة الفرح لما سجل فريقه هدفا في شباك الخصم؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاللعب لا يعدو أن يكون لعبا، فإذا خسرنا في لعبة لا يعني أن نلبس الحداد، ونذرف الدموع، ونتأوه الحسرات والزفرات، وتظلم الدنيا في أعيننا، وتضيق علينا الأرض بما رحبت، ونكسر ونهدم ونهلك كل ما اعترض طريقنا وكان أمامنا!!

وكذلك إذا فزنا في لعبة لا يعني ذلك أن نبيح لأنفسنا كل ممنوع، ونرتكب ما ليس بمشروع، بحجة أننا نعبر عن فرحتنا - كما هو واقع اليوم في شوارعنا عقب كل مقابلة رياضية -.

إنَّ ممَّا يجب أن لا ينسى أنَّنا قطعة من الأمَّة الإسلاميَّة الَّتي تعاني آلاما وجراحا من قرون بعيدة لو أعيد تصويرها على الحقيقة وأعيد إحياؤها في النفوس لكانت كفيلة أن تسيل على الخدود العبرات، وتملأ الصدور بالزفرات، وتنغص علينا الأفراح والمسرات، فكيف ونحن نسمع ونرى كل يوم جسد الأمة ينهش من كل جهة ودماؤها تسفك في كل بقعة، والمسلم المرهف الحس يستشعر آلام إخوانه في العقيدة والدين إذ لا يليق به أن يترك للحدود الوهمية تعمل عملها كما أرادها المستعمر من التفريق والتبديد؛ بل المسلم أخو المسلم حيث كان من الأرض وحيث ما حل فيها، ولا بد من امتثال قول النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**» [البخاري (6011) ومسلم (2586)]

فلا إخال مسلما معتدا بهذه الرابطة الإيمانية يشعر بالفرح التام وبنشوة الانتصار الكاملة إذا هزم فريقه فريقا آخر، وفي الوقت الذي هو يحتفل ويرقص طربا إخوانٌ له في طرف من أطراف الأرض تتمزق أجسادهم إلى أشلاء، وتتقطع أبدانهم إربا إربا، وفتن تفتك بهم فتكا بأيدي أعداء هذه الأمة من اليهود والنصارى، أو بأيدي بعضهم بعضًا!!

ألا فليعلم كل مهوس باللعب أن الفائز على الحقيقة من فاز بطاعة الله ورسوله ﷺ في الدنيا، وفاز بالجنة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾**﴾ [الأحزاب]، وقال: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾**﴾ [آل عمران].

هذه نفثة مصدور، وصيحة نذير، وإن كانت تسير عكس التيار - كما يقال اليوم - أردنا بها النصح والتحذير، ولا يعني هذا أننا ضد الرياضة الَّتي ينتفع بها الإنسان، وتتقوَّى بها الأبدان، ويستعان بها على طاعة الرَّحمن، إذا خلت من المحظورات، وبعُدت عن إثارة البغضاء والعداوات، ولم تصدَّ عن ذكر الله وعن الصَّلوات، إلاَّ أنَّه على المسلم أن يغلِّب الجدَّ على اللَّعب، حتى يسلم من مواقع العطب، ولا يخلطن بين الجدِّ واللَّعب، والحق والكذب، وأن يدرك أن هدفه أسمى وأعلى وأغلى إنَّه «الجنَّة»، فلنكن أبناء جدٍّ لا أبناء لهو ولعب، والحمد لله وحده.

البيانُ في أخطاء الاستشهاد بآي القرآن

◘ الجـزء الخـامــس ◘

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

هذه آية أخرى تنضاف إلى جملة الآيات السابقة المرقومة على صفحات هذه المجلة الغراء في أعداد مضت، والتي سيقت في معرض الاستدلال أو الاستشهاد بها على معان وأحكام معينة؛ لكن على وجه غير صحيح أو مرجوح أو قاصر، مع التوسع في عرض أقوال المفسرين وتمييزها والمقارنة بينها ومناقشتها، سائلين الله تعالى أن يلهمنا السداد والصواب وأن يجنبنا الزلل وسوء الفهم في مقاصد كتابه وأحكامه.

الآية الخامسة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)﴾

[سورة البقرة].

◘ **وجه الخطأ:**

قصر معنى لفظة «السلم» في الآية على الصلح والمسالمة أو ترجيحه[1] على المعنى الصحيح الذي هو «الإسلام».

هذه الآية يجعلها قوم محل استشهاد واستدلال عند دعوة الخصوم من المسلمين إلى إجراء الصلح والنزوع إلى المسالمة والموادعة بعد الحرب والقطيعة، ويُفرِط آخرون فيجعلونها دعوة لغير أهل الإسلام أن يصطلحوا مع المسلمين إقرارًا منهم بالجامع المشترك الذي يربطهما ـ وهو الديانة أو الإيمان ـ دون النظر إلى كونه حقا أو باطلا ـ وذلك باعتراف كلٍّ أهل دين بدين الآخر[2].

والحقُّ أنَّ لفظة «السِّلم» الواردة في الآية هي بمعنى الإسلام بجميع شرائعه، وإن كانت تدلُّ على معنى الصُّلح، لكن بتقييد معيَّن[3]، وهو قولٌ لبعض المفسرين.

(1) كما يوحي إليه كلام الشيخ الطاهر بن عاشور في «تفسيره» (276/2).

(2) وهو ما يسمى ـ زعمًا ـ بالدَّعوة إلى وحدة الأديان!!

(3) يطلق السلم على الصلح لغة، كما يُحتَّم حمله على المعنى نفسه سياق الآيات السابق واللاحق؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، وقوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: 35].

▣ **وبيان هذا من وجوه عدَّة:**

أولاً: أن تفسير السِّلْم بالإسلام هو قول جماهير المفسرين[4] من السلف والخلف، وأكثر المعاصرين.

ذكر منهم ابن جرير في «جامع البيان» (3/597):

«عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد والضحاك».

وزاد عليه ابن كثير في «تفسيره» (1/569):

«طاوس وعكرمة»، وزاد ابن الجوزي (1/225):

«ابن قتيبة والزجاج».

ثانيًا: أن من المفسرين من اقتصر على هذا المعنى وحده دون غيره (أي تفسير السلم بالإسلام)، ومن هؤلاء:

- عبد الرزاق الصنعاني في «تفسير القرآن العظيم» (1/98).

- ابن أبي زمنين في «تفسير القرآن العزيز» (1/214).

- أبو المظفر السمعاني في «تفسير القرآن العظيم» (1/209 و210).

- البغوي في «معالم التنزيل» (1/183).

- القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (3/22).

- ابن تيمية في «المجموع» (7/266).

- ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (1/569).

- الجلال المحلي في «حاشية الصاوي» (1/95).

- الشوكاني في «فتح القدير» (1/410).

- الألوسي في «روح المعاني» (2/97).

- صديق حسن خان في «فتح البيان» (1/419).

- ابن السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (1/164).

- محمد حسنين مخلوف في «صفوة البيان» (ص49).

- ابن عثيمين في «تفسير سورة البقرة» (3/6).

- عبد المنعم تعليب في «فتح الرحمن في تفسير القرآن» (1/242).

ثالثًا: أن من المفسرين المعتنين بجمع أقوال المفسرين من السلف وغيرهم لم يذكروا من فسر «السلم» بالصلح في الآية المذكورة، ومن هؤلاء:

- الماوردي في «النكت والعيون» (2/267).

- ابن الجوزي في «زاد المسير» (1/255)، وكلاهما فسرا السلم بمعنيين؛ الأول: الإسلام، والثاني: الطاعة.

- ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (7/266)، وبين في هذا الموضع أن تفسير السلم بالإسلام وبالطاعة هما بمعنى واحد وعبارته: «وكلاهما حق، فإن الإسلام هو الطاعة كما تقدم أنه من باب الأعمال».

- السيوطي في «الدر المنثور» (2/491).

رابعًا: أن صرف معنى السلم إلى الإسلام يقتضيه مضمون الخطاب، فالآية موجهة للمؤمنين بدليل

(4) وممن نسبه إلى الجمهور شيخ الإسلام في «المجموع» (7/266).

الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وسواء قلنا: إن المراد بالمؤمنين من آمن بمحمد ﷺ وبما جاء به، أو قلنا: إن المراد من آمن بمن قبل محمد ﷺ من الأنبياء والمصدقين بهم المنكرين لنبوة محمد ﷺ.

فالذي يقتضيه الخطاب الدعوة إلى الدخول في الإسلام، لا المصالحة والمسالمة التي غالبا ما يؤمر بها من كان محاربا بترك الحرب والنزوع إلى السلم، ثم لا معنى أن يقال لهم: ادخلوا في صلح المؤمنين وهم أهل إيمان، وقد جلى هذا المعنى في غاية البيان ابن جرير في «تنسيره» (598/3) حيث قال: «وإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل في قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾، وصرفنا معناه إلى الإسلام؛ لأن الآية مخاطب بها المؤمنون، فلن يعدو الخطاب - إذ كان خطابا للمؤمنين - من أحد أمرين: إما أن يكون خطابا للمؤمنين بمحمد المصدقين به وبما جاء به، فإن يكن ذلك كذلك، فلا معنى أن يقال لهم وهم أهل الإيمان: ادخلوا في صلح المؤمنين ومسالمتهم؛ لأن المسالمة والمصالحة إنما يؤمر بها من كان حربا بترك الحرب، فأما الموالي فلا يجوز أن يقال له: صالح فلانا، ولا حرب بينهما ولا عداوة أو يكون خطابا لأهل الإيمان بمن قبل محمد ﷺ من الأنبياء المصدقين بهم وبما جاءوا به من عند الله، المنكرين محمدا ﷺ ونبوته، فقيل لهم: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ يعني به الإسلام لا الصلح؛ لأن الله عز وجل إنما أمر عباده بالإيمان به وبنبيه محمد ﷺ وما جاء به، وإلى ذلك دعاهم دون المسالمة والمصالحة، بل نهى نبيه ﷺ في بعض الأحوال عن دعاء أهل الكفر إلى السلم، فقال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: 35].

وإنما أباح له ﷺ في بعض الأحوال إذا دعوه إلى الصلح ابتداء المصالحة، فقال له جل ثناؤه: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61].

فأما دعاؤهم إلى الصلح ابتداء فغير موجود في القرآن؛ فيجوز توجيه قوله: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ إلى ذلك» اهـ.

خامسًا: أن الوجه الأولى في قراءة لفظ «السلم» في الآية أن يكون بالكسر[5] لإفادته معنى الإسلام قطعا ومعنى الصلح احتمالا، وحمله على معنى الإسلام أولى وأغلب من الصلح والمسالمة؛ لأن صلاح الأمر ودوامه إنما هو بالدخول في جميع شرائع الإسلام، وفي هذا يقول ابن جرير في «تفسيره» (597/3): «وأما الذي هو أولى القراءتين بالصواب في قراءة ذلك، فقراءة من قرأ بكسر السين؛ لأن ذلك إذا قرئ - كذلك وإن كان قد يحتمل معنى الصلح -، فإن معنى الإسلام ودوام الأمر الصالح عند العرب أغلب عليه من الصلح والمسالمة، وينشد بيت أخي كِنْدَة:

دعوت عشيرتي للسِّلم لما

رأيتهم تولوا مدبرينا

بكسر السين، بمعنى: دعوتهم للإسلام لما

(5) وقراءتها بالفتح صواب أيضًا؛ قرأ بها ابن كثير ونافع والكسائي.

ارتدوا وكان ذلك حين ارتدت كندة مع الأشعث بعد وفاة رسول الله ﷺ».

ومما يعزز قول ابن جرير هذا استشهاده بقراءة أبي عمرو بن العلاء في كسره لسين السلم في هذه الآية دون سواها وفتحه لسين السلم الواردتين في سورتي الأنفال ومحمد، قال رحمه الله في «تفسيره» (3/598): «وقد كان أبو عمرو ابن العلاء يقرأ سائر ما في القرآن من ذكر «السلم» بالفتح، سوى هذه التي في سورة البقرة فإنه كان يخصها بكسر سينها، توجيها منه لمعناها إلى الإسلام دون ما سواها»[6].

سادسًا: أن «السلم» بمعنى الإسلام وارد في كلام العرب وأشعارهم وهو الأغلب في دعوة قبائلهم وعشائرهم عند مجيء الإسلام من الصلح والمسالمة، لما في ذلك من صلاح أمورهم واستقامة أحوالهم، قال الأحوص[7]:

فذادوا عدو السِّلم عن عقر دارهم
وأرسوا عمود الدين بعد التمايل

وقال امرؤ القيس الكندي[8] داعيا قومه إلى الإسلام:

دعوت عشيرتي للسلم لما
رأيتهم تولوا مدبرينا
فلست مبدلا بالله ربا
ولا مستبدلا بالسلم دينا

وقال آخر[9]:

شرائع السَّلم قد بانت معالمها
فما يرى الكفر إلا من به خبل

قال ابن السمين الحلبي في «الدر المصون» (2/359) بعد أن أورد هذا البيت بفتح سين السلم والبيت الذي قبله ـ وهو لامرئ القيس ـ بكسر سين السلم: «فالسِّلم والسَّلم في هذين البيتين بمعنى الإسلام، إلا أن الفتح فيما هو بمعنى الإسلام قليل».

سابعًا: أن سياق الآية وسباقها ولحاقها يعين على المعنى الذي اختاره الجمهور في تفسير «السلم» بالإسلام ويتناسب معه، ومراعاة دلالة السياق يندفع بها الإشكال عند التفسير[10] وتوضيح هذا أن الآيات التي قبل هذه الآية جاءت في معرض ذم المنافق الساعي إلى الإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، فناسب أن يأتي بعده بما يضاد ذلك من أمر المسلمين بالدخول في الإسلام والأخذ بجميع شرائعه وأن لا يكونوا كالمنافقين المؤمنين ببعض الكتاب الكافرين ببعضه الآخر، ثم ما جاء في الآية

(6) نقل القرطبي في «الجامع» (3/23)، والطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (2/276) نقلا عن المبرد أنه أنكر هذه التفرقة وقال: اللغة لا تؤخذ هكذا وإنما تؤخذ بالسماع لا القياس، ويحتاج من فرق إلى دليل.

(7) «لسان العرب» (12/295) مادة سلم.

(8) «تفسير ابن جرير» (3/597)، «التحرير والتنوير» (2/276).

(9) البيت في «الدر المصون» (2/359)، وقال محققه: «لم أهتد إلى قائله».

(10) انظر «البرهان» للزركشي (2/200) و«قواعد التفسير» لعثمان السبت (2/779)، و«فصول في أصول التفسير» لمساعد الطيار (ص43).

نفسها من التحذير من اتباع خطوات الشيطان فهو مناسب - أيضا - للأمر بالدخول في الإسلام كافة، والقاعدة في التفسير «أن القرينة في الآية تدل على ما استغلق منها»[11].

فاتباع خطوات الشيطان هو العمل بما خالف أحكام الإسلام وشرائعه، ولذا قال ابن جرير في «تفسيره» (603/3): «وطريق الشيطان الذي نهاهم أن يتبعوه هو ما خالف حكم الإسلام وشرائعه، ومنه تسبيت السبت وسائر سنن أهل الملل التي تخالف ملة الإسلام».

وقال الشيخ ابن سعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (165/1): «ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾».

وليتأمل بعد هذا في قوله تعالى بعد الآية التي أمر فيها بالدخول في السلم كافة وهو قوله جل وعز: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)﴾ [البقرة]، فلفظ «زللتم» بمعنى ضللتم وأخطأتم الحق وخالفتم الإسلام وشرائعه[12] وفسره بعضهم بالشرك[13]، والكل مناسب لمقابلة لفظ «السلم» الذي بمعنى الإسلام، ثم قوله أيضًا: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، والبينات ما جاء به محمد ﷺ أو هو الإسلام والقرآن على ما ذكر غير واحد من المفسرين[14] أو أنَّها «الآيات الظاهرة على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق»[15].

ثامنًا: أنَّ أصل كلمة السلم عائد إلى الانقياد، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ [البقرة]، وأصل كلمة الإسلام راجع إلى هذا المعنى أيضا، وحتى من قال: إن اسم «السلم» غلب على الصلح وترك الحرب باعتبار أنه عند الصلح ينقاد كل واحد لصاحبه ولا ينازعه فيه[16]؛ فإن تفسير السلم بـ «المسالمة والوفاق يتوقف على الوجه الأول - أخذ الدين بجملته -؛ لأنه أمر برفع الشقاق والتنازع وبالاعتصام بحبل الوحدة، وشد أواخي الإخاء، ولا يرتفع الشيء إلا برفع أسبابه، ولا يستقر إلا بتحقق وسائله، وهو بمعنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: 46]، وقوله - عليه الصَّلاة والسَّلام -: «لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ أَعْنَاقَ[17] بَعْضٍ» رواه الجماعة كلهم»[18].

(11) انظر «قواعد وفوائد لفقه كتاب الله» للجوعي (ص37).

(12) راجع «تفسير الطبري» (603/3).

(13) انظر «تفسير ابن أبي حاتم (371/2)، و«تفسير ابن جرير» (604/3).

(14) انظر «تفسير ابن جرير» (604/3)، «فضائل القرآن» لأبي عبيد (24، 25).

(15) «محاسن التأويل» للقاسمي (614/1).

(16) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (206/5).

(17) كذا بالأصل، والصواب: «رقاب».

(18) أفاده رشيد رضا في «تفسير المنار» (258/2).

ثم لا ضير أن يسمى الإسلام صلحا، قال أبو الحسن الواحدي النيسابوري (ت: 468) في تفسيره «الوسيط في تفسير القرآن» (313/1): «والمراد بالصلح: الإسلام؛ لأن الإسلام صلح، ألا ترى أن القتال من أهله موضوع (أي متروك)، وأنهم أهل اعتقاد واحد ويد واحدة في نصرة بعضهم لبعض فسمي الإسلام صلحا لما ذكرنا» اهـ.

تاسعًا: أن أمر المؤمنين بالدخول في الإسلام لا يعد إشكالا[19] وليس من تحصيل الحاصل[20] بحجة أن الإيمان هو الإسلام أو أن الإيمان أكمل من الإسلام؛ لأنه إذا قلنا: إن الإيمان هو الإسلام فهو أمر بالاستمرار عليه وعدم الإخلال بشيء منه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، والقاعدة في التفسير أن «ما أمر الله به في كتابه إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه، فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه، فهذا أمره به ليصحح ما وُجد عنده منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه»[21]، والخطاب الموجه للمؤمنين بالدخول في الإيمان من قبيل الثاني، فتنبه.

وقد قال صاحب «التحرير والتنوير» مجلّيًا هذه القاعدة (277/2): «فإن الخطاب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وأمر المؤمنين بالدخول في الإسلام يؤول بأنه أمر بزيادة التمكن منه والتغلغل فيه؛ لأنه يقال: دخل الإيمان في قلبه إذا استقر وتمكن، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

وقال النابغة:

أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته

تحرك داء في فؤادي داخل

وهذا هو الظاهر، فيراد بالأمر في «ادخلوا» الدوام على ذلك».

وأما إذا قلنا: إن الإيمان أكمل من الإسلام لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14] فكيف يؤمر الأكمل بالانضمام إلى ما هو دونه؟!

فالجواب: إنّ الأمر بالدّخول في الإسلام مقيّد بقوله «كافة» وللمفسّرين فيها قولان:

الأوّل: أنّ «كافّة» حال من السلم، أي ادخلوا في الإسلام بجميع شرائعه ولا تتركوا منه شيئا.

الثّاني: أنّ «كافّة» حال من الواو في قوله «ادخلوا» فيكون المعنى ادخلوا أنتم جميعا في الإسلام ولا يتخلّف منكم أحد.

والرّاجح القول الأوّل، قاله الشّيخ ابن عثيمين في تفسير الآية من سورة البقرة (6/3) وعلّل ذلك بـ «لأنّنا لو قلنا بالمعنى الثّاني: ادخلوا جميعا في

(19) ذكر الرازي في «تفسيره» ثمانية أجوبة لدفع هذا الإشكال ولا يخلو بعضها من نظر، فارجع إليه في (206/5) وما بعدها.

(20) «القواعد الحسان» لعبد الرحمن بن سعدي (ص120).

(21) «القواعد الحسان» لعبد الرحمن بن سعدي (ص119)، و«قواعد التفسير» لعثمان السبت (500/2).

السلم صار معنى ذلك أنّ بعض المؤمنين لم يدخل في الإسلام،وحينئذ فلا يصحّ أن يوجّه إليه النّداء بوصف الإيمان، فالمعنى الأوّل هو الصّواب أنّ «كافة» حال من السلم يعني ادخلوا في الإسلام كله، أي نفّذوا أحكام الإسلام جميعا ولا تدعوا شيئا من شعائره ولا تفرّطوا في شيء منها، وهذا مقتضى الإيمان، فإنّ مقتضى الإيمان أن يقوم الإنسان بجميع شرائع الإسلام».

عاشرًا: أن ما ذكره كثير من المفسرين في سبب نزول الآية[22] - وأنّها نزلت في قوم من اليهود أرادوا أن يبقوا على بعض دينهم كتعظيم يوم السبت والقيام بالتوراة ليلا فنهوا عن ذلك[23] - يساعد على بيان المراد من السلم وأنه الإسلام؛ لأنه يصير معنى «ادخلوا» أقيموا شعائر الإسلام ولا تشتغلوا بما عداها واتركوا ما أنتم عليه من الدين الذي لم يجئ به الإسلام[24].

وذهب بعضهم إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب دعوا وأمروا بالدخول في الإسلام[25]، وعلى هذا فلا إشكال في حمل معنى السلم على الإسلام، ومن قال إنها نزلت في المنافقين فيكون خطابهم بلفظ الإيمان على معنى أظهروا الإيمان وإن كانوا على غير حقيقته، فأمرهم بالدخول في السلم الذي هو الإسلام أو الإيمان على الحقيقة لا اعتراض عليه[26].

* * *

فهذه عشرة أوجه ذُكرت في بيان معنى «السلم» الوارد في آية البقرة، وأنه الإسلام بجميع شرائعه، وترجيحه على المعنى الآخر الذي هو الصلح والمسالمة، انتُزعت من كتب أهل العلم بالتأويل وخاصة من اعتنى منهم بجمع الأقوال وتحريرها والترجيح بينها وبذكر الأدلة كابن جرير وابن كثير وابن تيمية والطاهر ابن عاشور والسعدي - رحم الله الجميع ونفعنا بعلمهم -.

وصلّى الله وسلّم على نبيِّه الأمين ومن اتَّبع هداه إلى يوم الدِّين.

(22) لم يثبت من ذلك شيء يعتمد عليه.

(23) راجع «تفسير ابن جرير» (3/599، 600)، و«تفسير ابن كثير» (1/568)، و«الاستيعاب في بيان الأسباب» (1/148).

(24) «تفسير ابن جرير» (3/600)، و«تفسير ابن كثير» (1/570)، و«الدر المنثور» (2/491)، و«التحرير والتنوير» (2/277) وما بعدها.

(25) راجع «تفسير ابن جرير» (3/600).

(26) نفى صاحب «التحرير والتنوير» أن يكون الخطاب موجها للمنافقين؛ لأنه على قوله: إن النداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» صار كاللقب لمن اتبع الدين حقا، ولأن الظاهر على هذا أن يثبت للمنافقين وصف الإسلام ويطلب منهم الإيمان دون العكس بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ وهذا تنبيه في محله.

قراءة تربويَّة في حديث «مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ...»

فريد عزوق

مرحلة الدكتوراه في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم :

«مَنْ حَجَّ هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ[1] وَلَمْ يَفْسُقْ[2] رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ[3]»[4].

1ـ يبيِّن هذا الحديث العظيم طبيعةَ التَّربية النَّبويَّة للأمَّة، وأنَّها لا تقوم على التَّعليم فحسب، ولكنَّها تستند كذلك إلى مبدأ التَّوجيه والمتابعة؛ حيث إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يقتصر على تعليم النَّاس مناسك الحجِّ قولاً وفعلاً، بل أرشدهم إلى ما يحقِّق الكمال فيه، ووجَّههم إلى ما تتحقَّق به تزكية نفوسهم، من خلال بيان ما قد يعتري المسلم من إغراءات أو إكراهات أثناء أدائه فرائض دينه، فنبَّه إلى خطورتهما ووجَّه بطريقة تربويَّة غير مباشرة سبيل تجاوزهما، لذا على من يتولَّى مسؤوليَّة تعليم أبناء الأمَّة ألاَّ يكتفي بتلقين العلوم وتفهيم مسائلها وهو غُفْل عن توجيه الأمَّة وتأديبها، فملامسة القلوب وتغذية الرُّوح وظيفة نبويَّة مقصودة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة]، وقد أنكر الباجي رحمه الله طريقة بعض الفقهاء الَّذين كانوا يُعنون بتدريس الفقه حيث يقتصرون على إيراد المسائل وشرحها دون الاهتمام بتهذيب النُّفوس وتزكيتها، ممَّا عاد سلبًا على بعض طلبة العلم الَّذين أوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً، ولَمَّا لاحظ ذلك رحمه الله أرشد ابنيه فكتب لهما كتابًا أسماه «سَنَن الصَّالحين وسُنَن العابدين» بيَّن فيه مقصده من تأليفه في مقدِّمته حيث قال: «يا

(1) الرَّفث قيل: هو الجماع، وقيل: مقدِّماته، وقيل: ما يخاطب به النِّساء، وقيل: كلُّ ما يريده الرَّجل من المرأة.

(2) الفسق هو الخروج عن الطَّاعة بترك ما أمر الله تعالى أو بالمعصية أو بالبدعة.

(3) رجع كما ولدته أمُّه، أي نقيًّا من الذُّنوب، وفي هذا عدَّة مسائل منها: هل الحجُّ يكفِّر جميع الذُّنوب بما فيها الكبائر؟ وهل المكفِّر للذُّنوب هو حجَّة الإسلام أم كلُّ حجٍّ بما فيه حجّ النِّيابة؟ وهل العمرة داخلة في الجزاء لورود الحديث عند مسلم بلفظ «من أتى البيت»؟ وهل الجدال داخل في الشَّرط تبعًا للآية: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۝١٩٧﴾؟ وغيرها من المسائل، وكلُّ هذه ليس محلّ بحثها الآن؛ فلتراجع في مواضعها.

(4) متَّفق عليه: البخاري (1723)، واللَّفظ له، ومسلم (1350).

بَنيَّ! وفَّقكما الله، فإنّي لَمَّا رأيت الوعظ من أدوية القلوب وآداب النُّفوس... رأيت أنْ أجمع لكما كتابًا من هذا النَّوع يكون فيه تنبيه على معانٍ لا توجد في كتب الفقهاء وتأديب بأخلاق مَنْ سلَف من العلماء...»[5].

2ـ قوله ﷺ: «**فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ**» بصيغة «لَمْ» النَّافية بينما في الآية القرآنيَّة قال تعالى: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ** ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة] ورد النَّفي بحرف «لا» النَّافية للجنس الَّذي يُراد منه النَّهي ابتداءً؛ أي من أراد الحجَّ ابتداءً يلزمه اجتناب هذه الأمور، وفي الحديث ورد بـ«لم» النَّافية لِمَا مضى من الزَّمان؛ أي من حجَّ فلم يقع منه هذه الأمور في حجِّه كُوفِئَ بمحو ذنوبه، فالآية دلَّت على ما ينبغي أن ينتبه له الحاجُّ ويجتنبه ابتداءً، وأمَّا الحديث فدلَّ على ما ينبغي أن يستحضره الحاجُّ أثناء حجِّه لينتهي إلى محو ذنوبه، فالأوَّل تعلَّق بالامتثال، والثَّاني تشوَّف للجزاء، وفي النَّصَّين بيانٌ لطريقة التَّربية الإسلاميَّة القائمة على استصحاب المقصود أو الغاية للأمر والنَّهي أثناء مباشرة الفعل؛ أي فمن حجَّ فليكن مقصوده امتثال أمر الله تعالى والتَّقرُّب إليه رجاءَ ثوابه ومحو ذنوبه لتزكو نفسه فينال رضا ربِّه؛ وهذا يقتضي أن يتدرَّب المسلم على ربط العمل بالقصد حتَّى ييسِّر الله له الفعل ويعينه عليه ويجد حلاوته، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ** ﴿٧﴾﴾ [الليل] وهذا ما نجده في كتب الحديث حيث يبدأ المصنِّف بأحاديث التَّرغيب والتَّرهيب قبل البداءة بأحاديث الأحكام لتهيئة النَّفس لِمَا يستقبل من أمرٍ أو نهي حبًّا ورجاءً وخوفًا.

3ـ في الحديث سبق تربوي عظيم؛ إذ لَمَّا كان النَّاس متفاوتين في أعمارهم وأجناسهم ومراتبهم وطبائعهم وتقواهم، وكان اجتماعهم في المكان الواحد والزَّمان المحدَّد لأداء عبادات جماعيَّة ينتج عنه تباين واختلاف واحتكاك قد يفضي إلى محرَّم ممَّا باعثه شهوة أو شبهة أرشد النَّبيُّ ﷺ إلى ما يكمل تلك العبادات، ونبَّه إلى ما يفسدها.

وجماع ذلك راجع إلى ملازمة التَّقوى وعدم الاستجابة إلى داعي النَّفس الشَّهوانيَّة أو الغضبيَّة أو غيرهما؛ لأنَّ المقام مقام وقوف بين يدي الله تعالى وتجرُّد إليه سبحانه، فلا ينبغي أن يقطعه بما هو من دواعي النَّفس وشهواتها ونزغات الشَّياطين ووسوستها، ففي صلاة الجماعة قد يصادف المرء رائحة كريهة من آخر أو إيذاء بتخطِّي رقبته، أو نحو ذلك، فنبَّهه الشَّرع الحكيم إلى التَّحلُّم في ذلك وتجاوزه، والجماعة الَّتي يحضرها الرِّجال والنِّساء ربَّما تدعوه النَّفس لتملِّي وجوه النِّساء أو النَّظر إليهنَّ أو مخاطبتهنَّ لقربهن منه، فنبَّهه الشَّرع إلى مراقبة الله في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ** ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر] وسببه كما قال ابن عبَّاس رضي الله عنه[6]: إنَّه **كانت امرأة**

(5) الباجي: «سنن العابدين وسنن الصَّالحين» (ص45).

(6) رواه أحمد في «مسنده» (1/305)، وضعَّفه الأرنؤوط في =

حسناء تصلّي خلف رسول الله ﷺ، قال: فكان بعض القوم يستقدم في الصّفّ الأوّل لئلاّ يراها، ويستأخر بعضهم حتّى يكون في الصّفّ المؤخّر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله في شأنها الآية السّابقة، فمن اشتغل برؤية النّساء عن عبادة الله الّذي قام لمناجاته لم يحقّق مرتبة الإحسان ولم يكن خاشعًا لله تعالى، ومن صام رمضان لكن ألم الجوع وشدّة العطش اضطرّاه إلى أن يتناساهما بالحديث في أعراض النّاس

= تحقيقه له (5/5)، وذلك لضعف عمرو بن مالك عنده، وحكم عليه بالنّكارة تبعًا لابن كثير كما في «تفسيره» (532/4)، وصحّحه ابن حبّان في «صحيحه» (401)، والحاكم في «مستدركه» (353/2)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرّجاه ووافقه الذّهبي، والألبانيّ في «السّلسلة الصّحيحة» (2472)، وتعقّب ابن كثير على تضعيفه، وقال الطّبري في «تفسيره» (94/7) عند هذه الآية: «وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصّحّة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الّذين استأخر موتهم ممّن هو حيّ ومن هو حادث منكم ممّن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر]، وما بعده وهو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الحجر: 25] على أنّ ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد، وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصّفّ لشأن النّساء والمستأخرين فيه لذلك، ثمّ يكون الله ﷻ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال ـ جلّ ثناؤه ـ لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيّها النّاس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصّفوف لشأن النّساء ولكلّ من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعدا لمن تقدّم في الصّفوف لسبب النّساء، وسارع إلى محبّة الله ورضوانه في أفعاله كلّها».

وقول الزّور أو السّباب والمخاصمة؛ فإنّه لم يصمه إيمانًا واحتسابًا، وكذلك احتكاك النّاس بعضهم ببعض في الحجّ عند الطّواف أو عند الرّمي أو في المسير إلى مزدلفة أو غير ذلك وما ينتج عنه من تدافع قد يغري الإنسان بالفحش أو الفسق أو الخصام، يوشك ذلك ألاّ يكون حجّه مبرورًا إلاّ إذا حقّق في كلّ ما سبق التّقوى ولازم العروة الوثقى، جعلنا الله ممّن جمّله بستره وعامله بلطفه وكرمه وعفوه، وممّن يتّقيه في سرّه وعلنه.

4. في الحديث بيان لصفة المربّي الأعظم ـ صلوات الله عليه وسلّم ـ وما كان عليه من نصح وحبّ ورحمة بأمّته حيث لم يكتف بإقامة الحجّة عليهم وتبليغهم أحكام دينهم، بل زاد إلى ذلك حرصه على إيصال الخير لهم، ورغبته في أن تنال أمّته أسنى المقامات وعلوّ المنازل بما يكون معه محو الذّنوب ورفعة الدّرجات، وكان ﷺ وهو المربّي الرّحيم بأمّته يتبع البيان بالإحسان كما فعل مع الفضل بن عبّاس رضي الله عنهما حينما كان رديفه في الحجّ حيث وقاه شرّ الفتن الّتي تضعف إيمان المرء وتؤثّر في الحجّ المبرور، فعن عَبْدِ اللَّهِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: **كَانَ الفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ فَجَعَلَ الفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ الفَضْلِ إِلى الشِّقِّ الآخَرِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ**»، وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ[7].

(7) متّفق عليه: البخاري (1513)، ومسلم (1334).

5. فيه أنَّ من مقاصد العبادة تربية المسلم على تقوية الإرادة نحو الطَّاعة وأنَّ الَّذي يخالط النَّاس ويصبر على أذاهم خير من الَّذي لا يخالط النَّاس ولا يصبر على أذاهم؛ لأنَّه لا محالة معرَّض لملاقاتهم أثناء أداء شعائره إنْ في الصَّلاة وإنْ في الحجِّ أو في غيرهما، ومن لم يكن قد تدرَّب على ذلك عرَّض عبادته للخدش والنُّقصان أو الحرمان، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «..**إِنَّمَا الحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَه**»[8] كما أنَّ «**مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ تَعَالَى**»[9]، والسَّبيل إلى التَّدرُّب على ذلك اختيار الرِّفقة الصَّالحة من أهل العلم والفضل ليكونوا عونًا على الطَّاعة وملازمة التَّقوى، لهذا اختار الصَّحابة ﷺ أن يأتوا إلى المدينة ليرافقوا النَّبيَّ ﷺ ومن معه إلى الحجِّ حتَّى يكونوا أقرب إلى الهدي وزكاء النَّفس، ومن أعجب ما قرأت في تزكية النَّفس وتدريبها على معالي الأمور في الحجِّ قصَّة عبد الله بن المبارك مع تلامذته وإخوانه وأهل بلدته، فقد كان عبد الله بن المبارك حريصًا على مصاحبة هؤلاء إلى الحجِّ ليسخو عليهم بعلمه وماله رغبة في نيل ما عند الله من ثواب، قال الذَّهبيُّ رحمه الله: «**كان ابن المبارك إذا كان وقت الحجِّ اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو، فيقولون: نصحبك، فيقول: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها، ثمَّ يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد، فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطَّعام وأطيب الحلوى، ثمَّ يخرجهم من بغداد بأحسن زيٍّ وأكمل مروءة، حتَّى يصلوا إلى مدينة الرسول ﷺ فيقول لكلٍّ واحد: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من المدينة من طُرفها؟ فيقول: كذا وكذا، ثمَّ يخرجهم إلى مكَّة، فإذا قضوا حجَّهم، قال لكلٍّ واحد منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكَّة؟ فيقول: كذا وكذا فيشتري لهم، ثمَّ يخرجهم من مكَّة فلا يزال ينفق عليهم إلى أن يصيروا إلى مرو، فيجصص بيوتهم وأبوابهم، فإذا كان بعد ثلاثة أيَّام عمل لهم وليمة وكساهم، فإذا أكلوا وسروا دعا بالصُّندوق ففتحه ودفع إلى كلِّ رجل منهم صرَّته، عليها اسمه**»[10]، رحمه الله وأجزل له المثوبة وأكرِمْ به من فتيه بسير.

6. في الحديث لفتة حكيمة لمبدأ الجزاء من جنس العمل، وذلك أنَّ الحاجَّ إذا كان في حجِّه مثل الطِّفل في دعته ورقته ولينه وتسامحه وابتعاده عن الفحش واتِّباع الهوى كافأه الله تعالى بأن جعله نقيًّا من عقابيل الذُّنوب، كالطِّفل الَّذي لم يجرِ عليه قلمُ التَّكليف ولم يخدشْ بياضَه سوادُ المعاصي.

7 ـ وهذه المقابلة هي فضل من الله تعالى على عبده الَّذي عظَّم الشَّعيرة؛ فأعظم الله له أجره، وعلى قدر البلاء يكون الجزاء، فكأنَّ الله تعالى يقول لك: يا عبدي! إنِّي جمعتك مع أناس في صعيد واحد جاءوا من كلِّ أطراف الدُّنيا على اختلاف مشاربهم وقواهم فيهم المسامح والغضوب والحليم

(8) الطَّبراني في «الأوسط» (2663) وغيره، وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (342).

(9) «صحيح البخاري» (1469).

(10) «سير أعلام النُّبلاء» (8/385، 386).

والحادُّ والجميل والدَّميم والرَّجل والمرأة والشَّابُّ والشَّابَّة، فلا تنال فضلي إلاَّ إذا كنت معهم مثل الطِّفل مع الكبير تقديرًا وتوقيرًا، ولا تطلب أكثر من حاجتك ولا تعنف فيها ولا تزد عليها، تمامًا كما الطِّفل يشبع حاجته ثمَّ يركن إلى نفسه، وهذا مسلك تربويٌّ في تحفيز الفرد على امتثال الطَّاعة والفرح بالجائزة، وله نظائر كثيرة في الشَّرع تقرِّر هذا الأصل: «**أنَّ الإحسان جزاؤه الإحسان**»؛ ومثال ذلك: مجازاة الله لحامل الحديث ومُبلِّغه بالنَّضارة في الدُّنيا والآخرة كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ**»[11]؛ لأنَّه. كما قال علي القاري رحمه الله.: «**جدَّ بحفظه ونقله طراوة الدِّين فجازاه في دعائه بما يناسب عمله...، ولأنَّه سعى في نضارة العلم وتجديد السنَّة فجازاه بالدُّعاء بما يناسب حاله**»[12].

8. فيه فرق بين الكَبْت المصاحب للألم وبين التَّحكُّم في النَّفس لأجل رضا الله تعالى، وما يصاحبه من لذَّة الطَّاعة وحلاوة الإيمان، فالكَبْت مرض نفسيٌّ على المسلم تفاديه، وأمَّا التَّحكُّم في النَّفس وضبطها وتزكيتها فمطلوب شرعًا، والفرق بينهما أنَّ الَّذي عنده كبت متى انحلت عقدته وأتيح له المجال لإشباع لذَّته انطلق بلا رقيب ولا حسيب، وأمَّا الضَّابط لنفسه امتثالاً لأمر الله ورضا بحكمه، فإنَّه يفعل ذلك حبًّا في ربِّه وطمعًا في جنَّته وخوفًا من عقابه، لذلك يوطِّن نفسه على الاستسلام لحكم الله تعالى عن رضا به ويقين بوعده وجميل حكمته، فلا يتعدَّى حدود الله ولو فُرشت له الحشايا.

9. فيه بيان لمنهج الإسلام في التَّربية والتَّوجيه بالتَّدرُّج حيث تدرَّج الشَّرع في تزكية النَّفس من السَّهل إلى الأصعب، فمن كان في مناجاة ربِّه وذكره سبحانه ضعف عنده داعي الهوى، فسهل عليه اجتنابه؛ كمن صام في رمضان عن المباح والحرام، فيسهل عليه بعد ذلك الصِّيام والابتعاد عن الحرام في غير رمضان، ومن ألجم نفسه عن الخصام والجدال والرَّفث وهو متلبِّس بالطَّاعة، سهل عليه بعد ذلك اجتناب المحرَّمات، ووطَّن نفسه على جميل الأخلاق وكريم الصِّفات، ومن لم يتدرَّب على ذلك أثناء مناجاة الله تعالى كان ما سواه أصعب، وكان من الله أبعد، والعياذ بالله، ولهذا قال ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ وَالجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[13]، وقال ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيامِهِ إِلاَّ الجُوْعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ**»[14].

وما أحسن قول الشَّاعر:

لا يقبل الله إلاَّ كلَّ طيِّبة
ما كلُّ مَن حجَّ بيت الله مبرورُ

(11) حديث متواتر: انظر تخريجه في كتاب: «دراسة حديث نضَّر الله امرءًا سمع مقالتي دراية ورواية» لشيخنا عبد المحسن العبَّاد حفظه الله.

(12) الملاَّ علي القاري: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (1/188) وما بعدها.

(13) «صحيح البخاري» (6057).

(14) «سنن ابن ماجه» (1690)، و«صحيح الجامع» (3488).

أهمية وفوائد العلم بأسماء الله وصفاته

عبد الحفيظ بوخالفة
ليسانس في العلوم الشرعية . الجزائر

إنَّ من جود الله عزَّ وجلَّ وكرمه أن أنعم على العباد من النِّعم الظَّاهرة والباطنة ما يفوق الحصر والعد كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل].

ومن أعظم هذه النعم على الإطلاق نعمة معرفة الله التي هي أشرف العلوم وأزكاها، وذلك لتعلقها بأعظم معلوم وهو الله سبحانه، كما قال تعالى في سورة النعم معددا نعمه على عباده: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل].

قال سفيان بن عيينة: «ما أنعم الله على عبد من العباد نعمةً أعظم من أن عرَّفهم لا إله إلا الله»[1].

وقال بعض السلف: «مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله»[2].

وقد تعرَّف الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى عباده

(1) «تحقيق كلمة الإخلاص» لابن رجب، ضمن «مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي» (3/74).

(2) «شرح حديث لبيك اللهم» ـ المجموع السابق (1/118).

بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وبيَّن لهم منها القدر الذي يتوصَّلون به إلى عبوديَّته عزَّ وجلَّ التي خلقهم لتحقيقها كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وأخفى عليهم من أسمائه وصفاته ما اقتضته حكمته كما في الدعاء المأثور عنه ﷺ: «...أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ»[3].

وكما جاء في الحديث في قصَّة الشَّفاعة: «فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ الآنَ»[4].

هذا؛ وما انتهك العباد حرمات الله عزَّ وجلَّ، وما تجرؤوا على عصيانه إلا بسبب جهلهم بربِّهم وعظمته وقدرته وعدم فقههم لأسمائه وصفاته، فكل قول وعمل سيِّء مرجعه إلى الجهل بالله ـ جلَّ جلاله ـ، وكلُّ قول وعمل طيِّب مرجعه إلى العلم بالله جلَّ جلاله.

(3) صحيح: أخرجه أحمد (73712) وغيره، انظر: «الصحيحة» (1/383).

(4) أخرجه البخاري (7510) ومسلم (193)، واللفظ له، وهو مشهور عند المحدثين بـ «حديث الشفاعة»، والضمير في «عليه» راجع إلى الحمد، انظر: «المنهاج شرح مسلم ابن الحجاج» للنووي (3/59).

وقد أوضح الله عَزَّوَجَلَّ هذا السبب في كتابه في عدَّة مواضع منه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، فبيَّن - سبحانه - أن عدم تقديرهم لله حقَّ قدره هو الذي حملهم على النُّطق بهذه الفرية العظيمة التي بطلانها أوضح من الشمس في رابعة النهار.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدِّره حقَّ قدره، ولا عرفه كما ينبغي»[5].

وقال - جل جلاله - بعد دعوة المشركين للنبي ﷺ بأن يعبد آلهتهم ويعبدوا إلهه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر]، فدعوتهم للنبي ﷺ أن يشرك بربه ناتج عن جهلهم بربهم إذ أن أسماء الله وصفاته دالة على وحدانيته وبطلان الشرك به كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر].

وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [فصلت]، ثم ذكر نتيجة ذلك الظن فقال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت].

فهذا جزاء من اعتقد في صفة من صفات الله أنها ليست على الوجه الأكمل، فكيف بمن نفى الصفة من أصلها متشبثا بدعاوى باطلة لا أساس لها من الصحة ولا تليق بخالق الأرض والسموات.

وهذه الآية وأمثالها من الآيات تدل على أن الجهل بالله وبأسمائه وصفاته رأس كل خطيئة، وعنوان كل خسارة في الدنيا والآخرة.

وأعظم هذه الخطايا جرما على الإطلاق خطيئة الشرك بالله الذي هو أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وقد وقع واستشرى في هذه الأمة لجهلها بربها، كما قال تعالى في قصة موسى لما قالوا له: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة؛ فإنه أرجع سبب قولهم الشنيع لعدم معرفتهم بربهم حق المعرفة، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف]، وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر].

ولما اتخذ قوم موسى العجل إلها اشتد غضبه عليهم، وحصل منه ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنه في القرآن من إلقائه للألواح وأخذه برأس أخيه ولحيته، ونبه الله - سبحانه وتعالى - في قصته

(5) «التفسير القيم» لابن القيم، جمع محمد الندوي وتحقيق حامد الفقي (ص193)/دار الفكر.

على سفاهة قومه، وكيف أنهم اتخذوا عجلا جسدا له خوار إلها، ولفت نظرهم إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا فكيف يتخذ إلها؟! قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾ [الأعراف].

وتأمَّل نكتة لطيفة وهي أن الله عز وجل لما يذكر قصة اتخاذهم للعجل إلها يحذف المفعول الثاني للاتخاذ وهو لفظة «إلها»، وهذا مطرد في القرآن كالآية السابقة، وكقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٥١)﴾ [البقرة]، أي اتخذتموه إلها، ولم يصرح به إلا في سورة طه في قوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه]، وذلك تنبيها منه - سبحانه - إلى أنه لا ينبغي التلفظ بأن عجلا مصطنعًا من جماد إله[6].

ولهذا يبطل الله عز وجل عبادة المشركين به بذكره لأوصاف المعبودات الناقصة من كل الوجوه، وبراءته - سبحانه - من كل الأسماء التي سمّوا بها آلهتهم، وذلك كله تنفيرا منها واستدلالاً بذلك على عدم استحقاقها للعبادة، كقوله تعالى في محاجة إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ [مريم]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)﴾ [فاطر]، وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 18]، وقال سبحانه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: 40].

وقال عن عيسى وأمه - عليهما الصَّلاة والسَّلام -: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥)﴾ [المائدة].

فبيَّن الله - سبحانه وتعالى - أن عيسى وأمه - عليهما الصَّلاة والسَّلام - ممن يحصل منهما الغائط والبول، وكنى على ذلك بأكل الطعام[7]، فلا ينبغي أن يكون إلها من كان حاله كذلك، والآيات بهذا المعنى لا تحصى كثرة[8].

ولما حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّته من فتنة الدَّجَّال - كفانا الله شره - وأخبر أن أغرارا ولهازم من هذه الأمة يعبدونه ويتبعونه، ذكر فيه صفة

(6) «أضواء البيان» للإمام الشنقيطي (249/2)، وانظر منه (63/1).

(7) «المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء» للجرجاني (ص9)/ط.الكتب العلمية.

(8) «أضواء البيان» للشنقيطي (376/4).

نقص تبين بطلان من اتخذه إلها وذكر بعدها صفة مدح وكمال للمعبود بحقٍّ، ففي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»[9].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله: «إنما اقتصر على ذلك مع أن أدلة الحدوث في الدجال ظاهرة لكون العور أثرًا محسوسًا يدركه العالم والعامي ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى الربوبية وهو ناقص الخلقة - والإله يتعالى عن النقص - علم أنه كاذب»[10].

وقد راعى أهل السنة والجماعة هذا الفهم للنصوص في ردهم على الفرق الإسلامية الزائغة في باب الأسماء والصفات التي تجرأ بعضها على نفي صفات الله وأسمائه، والبعض الآخر جعلها مشابهة لأوصاف المخلوقين الناقصة، حيث صرحوا أنَّ «المعطِّل يعبد عدمًا، والممثِّل يعبد صنمًا، والمعطِّل أعمى، والممثِّل أعشى»[11].

وذلك؛ لأنَّ المعطِّلة نفت صفات الله وأسماءه فصاروا كالعابد للعدم، ومعلوم بأن القلوب إنما تحب وتعبد من تعرفه وتشتاق إليه وتلتذ بقربه وتطمئن إلى ذكره، وذلك بحسب معرفتها بصفاته، فكيف تصمد إلى من ليس داخل العالم ولا خارجه، وكيف تأله من لا يسمع كلامها ولا يرى مكانها[12].

والممثِّلة مثلت صفات الله بصفات خلقه الناقصة، فصاروا كالعابدين للصنم وأبطلوا بذلك أعظم مقصد خلقت له الخليقة؛ إذ كيف يعبد المرء من يماثله في صفاته[13].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في النُّونيَّة المشهورة في رده على جهم وأشياعه[14]:

والله عاب المشركين بأنهم
عبدوا الحجارة في رضى الشَّيطان
ونعى عليهم كونها ليست بخا
لقة وليست ذات نطق بيان
فأبان أن العقل والتكليم من
أوثانهم لا شك مفقودان
فإذا هما فقدا فما مسلوبها
بإله حق وهو ذو بطلان
والله فهو إله حق دائما
أفعنه ذا الوصفان مسلوبان

❁ **هذا؛ وتتجلى فوائد وأهمية العلم بأسماء الله وصفاته - زيادة على ما ذكر - في النقاط التالية:**

◈ أنَّ العناية بهذا العلم سبب من أعظم أسباب دخول الجنان ونيل رضا الرحمن - سبحانه

(9) أخرجه البخاري (7131)، ومسلم (2933).

(10) «فتح الباري» لابن حجر (13/103)/ط.شيبة الحمد.

(11) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (5/309) و(8/257) و(12/43)/طبعة الباز، و«الكافية» لابن قيم الجوزية (ص43)، و«قطف الثمر» لمحمد حسن صديق خان (ص63)، و«الأعشى» هو سيء البصر كما في «القاموس المحيط» (1/364).

(12) «مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية (3/366 - 368).

(13) «تقريب التدمرية» لابن عثيمين/ضمن «مجموع فتاويه» (4/120).

(14) «الكافية الشافية» لابن قيم الجوزية (ص91)/ط. الشيخ علي الحلبي.

وتعالى ـ: ففي «الصَّحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجنَّةَ**»[15].

والتَّحقيق[16] أن إحصاء هذه الأسماء يشمل ثلاثة أمور:

ـ إحصاء ألفاظها وعددها.

ـ فهم معانيها ومدلولها.

ـ دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (180)**﴾ [الأعراف].

◊ التَّقوِّي على عبادة الله عز وجل، فإن لهذا العلم تأثيرًا عجيبًا على عبادة المسلم، فكلما زادت معرفته بربه ازداد حبه له وخوفه منه، فقد روى محمد بن نصر المروزي بسنده إلى أحمد ابن عاصم الأنطاكي أنه قال: «من كان بالله أعرف كان من الله أخوف»، قال أحمد ابن أبي الحوارى: «صدق والله!»[17].

وكان بعض السلف يقول: «لا تنظر إلا صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت»[18].

(15) أخرجه البخاري (2736)، ومسلم (2677)، وقد روي بعدة ألفاظ جمع طرقها أبو نعيم الأصبهاني في جزء له، وكذا للحافظ ابن حجر كتاب «تخريج حديث الأسماء الحسنى» وهما مطبوعان بتحقيق مشهور بن حسن آل سلمان.

(16) «بدائع الفوائد» لابن قيم الجوزية (1/288)/ط. عالم الفوائد.

(17) «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (2/786)، و«الفوائد» لابن القيم (ص134)/فائدة: 29 ـ دار السلام.

(18) ذكره الذهبي عن العالم الرباني بلال بن سعد السكوني في ترجمته (5/91).

◊ أن هذا العلم يعرف به الرب ـ سبحانه ـ ويستدل به على وجوده ومعرفة ذاته، وذلك لأن العلم بالشيء إما أن يكون برؤيته أو برؤية مثيله أو بوصفه.

أما الأول فرؤية الله في الدنيا لم تثبت للرسل فضلا عن غيرهم كما قال تعالى: ﴿**قَالَ لَن تَرَانِي**﴾ [الأعراف: 143].

أمَّا الثاني: فالمماثلة منزه عنها ربنا، كما قال سبحانه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)**﴾ [الشورى].

فلم يبق طريق لمعرفة الله إلا بوصفه وهو ما وصف به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ، في سنته[19].

◊ تحقيق شهادة أن محمدا رسول الله، وذلك لأن من مقتضى هذه الكلمة تصديق النبي ﷺ فيما أخبر به عن ربه، وأعظم ما أخبر به هذا الرَّسول الكريم أسماءَ الله وصفاته، فالنبي ﷺ صادق في خبره، مصدَّق من عند ربه، ومصدوق من عند المؤمنين.

◊ أن العلم بأسماء الله وصفاته سبب من أسباب إجابة الدعاء وإسباغ العطاء، فعن أنس رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسا ورجل يصلي ثم دعا: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلاَّ أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»، فقال النبي

(19) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (10/48) و(17/105).

ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللّهَ باسْمِهِ العَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[20].

◈ أن الجهل بالله وأسمائه وصفاته هو سبب الردى والهلاك، وهو مَدعاة لسوء الظن بالله العظيم كما تقدم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: 22]، ويوضحه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مستترا بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفر، قرشي وختناه ثقفيان - أو ثقفي وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أَتُرَوْنَ أن الله يسمع كلامنا هذا؟! فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ الآيات [فصلت: 22][21].

(20) أخرجه أبو داود (1495)، والترمذي (3544)، وقال: «غريب»، وابن ماجه (3858) والنسائي (1301) عن أنس بن مالك؛ وقد روي بلفظ آخر من حديث بريدة بن الحصيب بسند صحيح أخرجه أبو داود (1493) والترمذي (3475) وابن ماجه (3857)، انظر: «السلسلة الصحيحة» (3411) و«صحيح أبي داود» (5/229).

أما حديث: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى» فهو حديث ضعيف، انظر: «السلسلة الضعيفة» (2775).

(21) أخرجه أحمد في «المسند» (3432، 7521)، والبخاري (4817)، ومسلم (2775)، والترمذي (3249)، وقال: حسن صحيح.

وعليه؛ فالواجب على المسلم أن يكون حسن الظن بالله - سبحانه وتعالى -، ومعرفته - سبحانه - عون على ذلك، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»[22].

◈ أن معرفة الأسماء والصفات من أعظم وسائل التفقه في الدين وفهم الأحكام الشرعية عن الرب - سبحانه -، ولعل هذا هو السر في ختم الله - سبحانه - لكثير من الأحكام؛ باسم أو اسمين من أسمائه - سبحانه وتعالى - الَّتي لها تعلق بما سبق من تلك الأحكام وتأمل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (226) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)﴾ [البقرة].

وقد يكتفي الله - سبحانه وتعالى - بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بأسمائه وصفاته، عرفوا ما يترتب عليها من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: 209]، لم يقل: فلكم من العقوبة كذا وكذا، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)﴾

(22) أخرجه مسلم (2877) من حديث جابر رضي الله عنه.

أي: فإذا عرفتم عزته وهي قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمته وجزائه، لكمال قهره وعزته[23].

ولهذا يستدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها قال تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [الأعراف]، وقال عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش والقول على الله بلا علم: ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾ [الإسراء].

فأعلمك ـ أيها المسلم ـ أن ما كان سيئة في نفسه فهو ـ سبحانه ـ يكرهه، وكماله يأبى أن يجعله شرعا له ودينا، فهو ـ سبحانه ـ يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به، ويحبه ويبغضه، ويثيب عليه ويعاقب عليه، ولكن هذه الطريقة لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة[24].

فكل ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ من الأحكام الشرعية، وكل أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه «الغفور الرحيم»، وعفوه من مقتضى اسمه «العفو»؛ ولهذا لما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا للنبي ﷺ: إن وافقت ليلة القدر، ماذا أقول؟ قال: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[25].

وقد روي أن الأصمعي قال: كنت أقرأ: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم»! وبجنبي أعرابي، فقال: كلام من هذا؟! فقلت: كلام الله، قال: أعد؟! فأعدت، فقال: ليس هذا كلام الله! فانتبهت فقرأت «والله عزيز حكيم»، فقال: أصبت هذا كلام الله، فقلت: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، فقلت: فمن أين علمت؟! فقال: يا هذا! عزَّ فحكم فقطع، فلو غفر ورحم لما قطع[26].

◈ تنزيه الرب ـ سبحانه ـ عن النقص والعيب، ونفي مماثلته بالمخلوقات الناقصة، ومعرفة ضلال كثير من الفرق في هذا الباب، إذ حقيقة مذهب الجهمية نفاة الصفات تمثيل الله عَزَّوَجَلَّ بالجمادات والمعدومات، ولهذا تفطن السلف لمذهبهم وبينوا حقيقته وضلاله حتى تقلد كفر هذه الفرقة الخبيثة الأئمة والعلماء والحكماء[27].

---

(23) «القواعد الحسان» (ص45) للعلامة السعدي ـ بتصرُّف يسير.

(24) «التفسير القيم» لابن القيم (ص194).

(25) أخرجه الترمذي (3513) وابن ماجه (3850)، وهو في «السلسلة الصّحيحة» للألباني (3337).

(26) «زاد المسير» لابن الجوزي (2/354).

(27) وقد نقل الإمام اللالكائي في [«شرح اعتقاد أهل السنة» (1/178)/ط.الحمدان] كفر الجهمية عن أكثر من خمسمائة محدث، انظر: «الرد على الجهمية» للدارمي/ ط.البدر: باب الاحتجاج على إكفار الجهمية (ص170)، و«النقض» له (ص5)/ط. حامد الفقي، و«السنة» للإمام =

ومن الطريف في هذا الباب ما رواه ابن شاهين في كتابه «شرح مذاهب أهل السُّنَّة» (برقم 34) بسند مسلسل بالأئمة الحفاظ إلى إمام أهل البصرة حمَّاد بن زيد رحمه الله أنَّه قال: «مثل الجهميَّة مثل رجل قيل له: في دارك نخلة؟ قال: نعم، قيل: فلها خوص؟ قال: لا، قيل: فلها سعف؟ قال: لا، قيل: فلها كرب؟ قال: لا، قيل: فلها جذع، قال: لا، قيل: فلها أصل؟ قال: لا، قيل: فلا نخلة في دارك!!!

هؤلاء الجهميَّة قيل لهم: لكم ربٌّ؟ قالوا: نعم، قيل: يتكلَّم؟ قالوا: لا، قيل: فله يد؟ قالوا: لا، قيل: فله قدم؟ قالوا: لا، قيل: فله إصبع؟ قالوا: لا، قيل: فيرضى ويغضب؟ قالوا: لا، قيل: فلا ربَّ لكم!!!».

○ ○ ○

فهذه بعض الفوائد التي يجنيها المسلم من خلال دراسته لهذا الباب العظيم من أبواب أصول الدين، وقد ضلت فيه أفهام، وزلت فيه أقدام، وخار الله لأهل السنة والجماعة فكانوا هم الوسط في هذا الباب وفي غيره، فحري بطالب العلم أن يسلك مسلكهم، وأن يقتدي بهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

= أحمد (ص4)/ط. السلفية، و«الإبانة» لابن بطة: باب بيان كفر الجهمية الذين أزاغ الله قلوبهم بما تأولوه من متشابه القرآن.

وقد أشار العلامة ابن القيم في «النونية» إلى ذلك بقوله:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنـ ـهم بل حكاه قبله الطبراني

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«فالسَّيرُ إلى الله من طريق الأسماء والصِّفات شأنُه عجبٌ، وفتحُه عجبٌ؛ صاحبُه قد سيقت له السَّعادة وهو مستلقٍ على فراشِه غيرَ تَعِبٍ، ولا مكدودٍ، ولا مشتَّتٍ عن وطنه، ولا مشرَّدٍ عن سكنِه».

[«طريق الهجرتين» (ص334)]

◈ ◈ ◈

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله:

«والقرآنُ فيه من ذكرِ أسماءِ الله وصفاتِه وأفعالِه أكثرَ ممَّا فيه من ذكرِ الأكلِ والشُّرب والنِّكاح في الجنَّة، والآياتُ المتضَمِّنة لذكر أسماءِ الله وصفاتِه أعظمُ قدرًا من آيات المعَاد، فأعظمُ آيةٍ في القرآن آيةُ الكرسي المتضمِّنة لذلك».

[«درء تعارض العقل والنقل» (3/ 61)]

ذكر ما ورد عن الإمام مالك رحمه الله وبعض علماء المالكيَّة بالمغرب في التَّمسُّك بالسُّنَّة وفهم السَّلف ونبذ البدعة

أحمد عيمر
طالب في مرحلة الدكتوراه في قسم الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

المطلب الثاني:

ذكر ما ورد عن الإمام مالك رحمه الله وبعض علماء المالكية في نبذ البدعة.

أمَّا فيما يخصُّ ما ورد عن الإمام مالك ومن اتَّبع منهجه من أصحابه ومن بعدهم علماء المالكيَّة في التَّحذير من الابتداع في الدِّين، والذَّمِّ لأهل الخصومة والرَّأي، وضرورة الابتعاد عمَّا لم يكن عليه السَّلف الأوَل من الصَّحابة وتابعيهم بإحسان فكثير جدًّا، وممَّا يدلُّ على شدَّة اهتمامهم بهذا الأصل العظيم أخذ مالك وأصحابه من بعده بسدِّ الذَّرائع؛ حسمًا للوسائل المفضية للوقوع في الشِّرك أو الابتداع، وصار العمل بسدِّ الذَّرائع من أصول المذهب عند المالكيَّة، قال الطَّرطوشي (ت530هـ) رحمه الله: «اعلم أنَّ الحرف الَّذي يدور عليه هذا المذهب[1] إنَّما هو حماية الذَّرائع وألاَّ يزاد في الفروض ولا في السُّنن المسنَّنة، وألاَّ يعتقد أيضًا في النَّوافل المبتدأة أنَّها سنن مؤقَّتة»[2]، وقال القرطبي رحمه الله: «التَّمسُّك بسدِّ الذَّرائع وحمايتها هو مذهب مالك وأصحابه، وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقد دلَّ على هذا الأصل الكتاب والسُّنَّة»[3].

وقد كان مالك رحمه الله شديد البعد عن البدع، مبغضًا لها، مجانبًا لمواقعها، منارقًا لأصحابها، قال ابن وضَّاح القرطبي: «وقد كان مالك يكره كلَّ بدعة، وإن كانت في خير»[4]، وقال أبو طالب المكِّي: «كان مالك رحمه الله أبعد النَّاس من مذاهب المتكلِّمين، وأشدَّهم بغضًا للعراقيِّين، وألزمهم لسنَّة السَّالفين من الصَّحابة والتَّابعين»[5].

وقال عنه الشَّاطبي: «وقد كان من أشدِّهم اتِّباعًا، وأبعدهم من الابتداع»[6]، وقال الزُّهري: «رأيت مالكًا ـ وقوم يتجادلون عنده ـ فقام ونفض رداءه

(1) أي المذهب المالكي.

(2) كتاب «الحوادث والبدع» للطرطوشي (ص66).

(3) الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي (2/57).

(4) كتاب فيه ما جاء في البدع (ص94).

(5) «ترتيب المدارك» (2/39).

(6) «الاعتصام» (1/299).

وقال: إنَّما أنتم جرب»[7].

وبيَّن رحمه الله أنَّ الابتداع في الدِّين مضادٌّ لكمال الشَّريعة، وانتقاصٌ لها ولمن بلَّغها، وأنَّ حال المبتدع في إحداثه كالقائل بتقصير النَّبيِّ ﷺ في إبلاغ هذا الدِّين، قال ابن الماجشون (ت213): سَمِعْتُ مَالِكًا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمَّدًا ﷺ خان الرِّسالة؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا»[8]، قال الشَّاطبيُّ: «وثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يمتْ حتَّى أتى ببيانِ جميع ما يحتاج إليه في أمر الدِّين والدُّنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السُّنَّة، ...فالمبتدع إنَّما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إنَّ الشَّريعة لم تتمَّ، وإنَّه بقي منها أشياء يجب أو يستحبُّ استدراكها؛ لأنَّه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كلِّ وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضالٌّ عن الصِّراط المستقيم»[9].

والبدعة من أخطر ما يُبتلى به المرء في دينه؛ لأنَّ المعصية يُرجى لصاحبها التَّوبة والإنابة إلى الله منها، أمَّا صاحب البدعة فيظنُّ نفسه على الطَّاعة، ولذا فهو على ملازمتها أحرص؛ إلى أن يموت عليها والعياذ بالله، فلأجل هذا كلِّه وغيره حذَّر الإمام مالك رحمه الله من خطورة الابتداع فقال: «لو أنَّ العبد ارتكب الكبائر كلَّها بعد أن لا يشرك بالله شيئًا، ثمَّ نجا من هذه الأهواء؛ لرجوت أن يكون في أعلى جنَّات الفردوس؛ لأنَّ كلَّ كبيرة بين العبد وبين ربِّه هو منها على رجاء، وكلَّ هوى ليس هو منه على رجاء، إنَّما يهوي بصاحبه في نار جهنم»[10].

وكان رحمه الله كثيرًا ما ينصح من يأتيه باجتناب ما أحدثه أهل البدع وأصحاب الرَّأي من كلام وجدال وخصومة، قال إسحاق بن عيسى (ت224): رأيت رجلاً من **أهل المغرب** جاء مالك بن أنس فقال: إنَّ الأهواء كثرت قِبَلنا فجعلت على نفسي إن أنا أتيتك أن آخذ بما تأمرني به؟ فوصف له مالك شرائع الإسلام؛ الصَّلاة، الزَّكاة، الصِّيام، الحجّ، ثمَّ قال: «خذ بهذا ولا تخاصم أحدًا»[11].

كما أنَّه بيَّن رحمه الله أنَّ بدعة الكلام باطل وانحراف عن جادَّة السَّبيل، خالف بها الخَلَف من أهل الكلام ما كان عليه السَّلف، وخاضوا في الَّذي توقَّف عنه الصَّحابة والتَّابعون، ذلك لأنَّ السَّلف ما أمسكوا عنه إلاَّ عن علمٍ وبصيرة لا عن جهل وغفلة، قال أشهب بن عبد العزيز (ت204): سمعت مالك بن أنس يقول: «إيَّاكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله ما البدع؟ قال: أهل البدع الَّذين يتكلَّمون في أسمائه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، لا يسكتون عمَّا سكت عنه الصَّحابة

(7) «ترتيب المدارك» (2/39).
(8) «الاعتصام» (1/62).
(9) المصدر نفسه.
(10) «ترتيب المدارك» (2/49).
(11) «ترتيب المدارك» (2/47).

والتَّابعون لهم بإحسان»[12].

وقال عبد الرَّحمن بن مهدي: «دخلت عند مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن، فقال: لعلَّك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرًا فإنَّه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علمًا لتكلَّم فيه الصَّحابة والتَّابعون كما تكلَّموا في الأحكام والشَّرائع؛ ولكنَّه باطل يدلُّ على باطل»[13].

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري (ت236هـ):

كان مالك بن أنس يقول: «الكلام في الدِّين أكرهه، وكان أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر وكلّ ما أشبه ذلك، ولا أحبُّ الكلام إلاَّ فيما تحته عمل، فأمَّا الكلام في الدِّين وفي الله عَزَّ وَجَلَّ فالسُّكوت أحبُّ إليَّ؛ لأنِّي رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدِّين إلاَّ ما تحته عمل»[14].

قال ابن عبد البرِّ معلِّقًا على كلام الإمام: «والَّذي قاله مالك رَحِمَهُ اللهُ عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديمًا وحديثًا من أهل الحديث والفتوى، وإنَّما خالف ذلك أهل البدع ـ المعتزلة وسائر الفرق ـ، وأمَّا الجماعة على ما قال مالك رَحِمَهُ اللهُ إلاَّ أن يضطرَّ أحدٌ إلى الكلام فلا يسعه السُّكوت إذا طمع بردِّ الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشي ضلال عامَّة أو نحو هذا»[15].

ولأجل ذلك كان من منهجه رَحِمَهُ اللهُ عدم الخوض في كلام أهل البدع، والعزوف عن مجادلتهم، والبعد عن محادثتهم، طلبًا لسلامة الدِّين، وخوفًا من التَّنقُّل عن منهج أهل الحقِّ، قال الهيثم بن جميل (ت:213هـ): «قلت لمالك ابن أنس: يا أبا عبد الله، الرَّجل يكون عالما بالسُّنَّة أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسُّنَّة؛ فإن قبلت منه وإلاَّ سكت»[16].

وقال ابن أبي زيد القيرواني: قيل ـ أي لمالك ـ: فمن قوي على كلام الزَّنادقة والإباضية والقدريَّة وأهل الأهواء أيكلِّمهم؟، قال: «لا؛ وإنَّ الَّذين خرجوا إنَّما عابوا المعاصي[17] وهؤلاء تكلَّموا في أمر الله»[18].

وعن معن بن عيسى أنَّ مالك بن أنس انصرف يومًا من المسجد وهو متَّكئ على يديه، فلحقه

(12) رواه الصابوني في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص69)، وذكره الزواوي في «مناقب الإمام مالك» (ص147).

(13) ذكره البغوي في «شرح السنة» (1/217)، والزواوي في «مناقب الإمام مالك» (ص147 ـ 148).

(14) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (2/938).

(15) المصدر نفسه.

(16) «ترتيب المدارك» (2/39)، «الجامع» لابن عبد البر (2/936).

(17) يريد الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ أن أهل البدع الأوائل حينما خرجوا عن جماعة المسلمين وهم الخوارج؛ إنما تكلموا في أمور هي من المعاصي؛ أنكروها على عثمان وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولأجل ذلك ناظرهم الصحابة كما وقع لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حين خرج لمناظرتهم قبل موقعة صفين، أما أهل البدع الذين خلفوا أولئك هم أهل كلام وجدال، خاضوا في المغيبات من صفات الله وما إلى ذلك بما أملت عليهم عقولهم القاصرة، وجدال مثل هؤلاء شرٌّ موصل إلى باطل وضلال، عافانا الله من ذلك.

(18) «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني (ص125).

رجل يقال له: أبو الجويرية، كان يُتَّهم بالإرجاء، فقال: يا أبا عبد الله! اسمع منِّي شيئًا أكلِّمك به وأحاجّك وأخبرك برأيي، قال: فإن غلبتني؟ قال: إن غلبتك اتَّبعتني، قال: فإن جاء رجل آخر فكلَّمنا فغلبنا؟ قال: نتَّبعه، قال مالك رحمه الله: «يا عبد الله! بعث الله محمَّدًا ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقَّل من دين إلى دين، قال عمر بن عبد العزيز: «من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التَّنقُّل»»[19].

وقد تنوَّعت مواقف الإمام مالك رحمه الله تجاه أهل البدع، فعن معن بن عيسى قال: كان مالك يقول: «لا يؤخذ العلم عن أربعة ويؤخذ ممَّن سوى ذلك»، وذكر من هؤلاء الأربعة: «صاحب هوى يدعو إلى هواه، أو قال: مبتدع يدعو إلى بدعته»[20]، وقال أيضًا: «لا تسلِّم على أهل الأهواء ولا تجالسهم إلاَّ أن تغلظ عليهم، ولا يعاد مريضهم، ولا تُحدِّث عنهم الأحاديث»[21].

بل ونهى رحمه الله عن إجارة كتب أهل البدع كما جاء في كتاب أبي عبد الله بن خويز منداد قوله: قال مالك: «لا تجوز الإجارة في شيء من كتب أهل الأهواء والبدع والتَّنجيم. وذكر كتبًا ثمَّ قال: «وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجارة في ذلك»[22].

وقال ابن خويز منداد في تأويل قول مالك: «لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء»: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكلُّ متكلِّم فهو من أهل الأهواء والبدع، ولا تقبل لهم شهادة في الإسلام، ويهجر ويؤدَّب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها»[23].

❖ أمَّا ما جاء عن أصحاب مالك وأعلام مذهبه فكثير ومَوْفُور في هذا الباب، ولم يألوا جهدًا ـ رحمهم الله ـ في النَّهي عن اتِّباع الأهواء والبدع، والتَّحذير من مجالسة أصحابها والأخذ عنهم، بل قد نقل القرافي (ت684هـ) رحمه الله الاتفاق على ذلك فقال: «اعلم أنَّ الأصحاب ـ أي علماء المالكيَّة ـ فيما رأيتُ متَّفقون على إنكار البدع نصَّ على ذلك ابن أبي زيد وغيره»[24].

ولا عجب في ذلك؛ إذ المغرب العربي قد توغَّلت فيه من الفتن والبدع والأهواء ـ في حياة الإمام مالك وبعد مماته ـ ما دعا علماء المالكيَّة للوقوف ضدَّ هذه الضَّلالات والانحرافات، وكشف زيفها، وهتك سترها، والتَّحذير منها أيّما تحذير.

فهذا عبد الله بن فروخ الفارسي (ت171هـ) الَّذي كان مُبَاينًا لأهل البدع معاديًا لهم، يراسل الإمام مالكًا ليخبره بحال بلاد المغرب فيقول: «إنَّ بلدنا كثير البدع»، وأنَّه ألَّف لهم كلامًا في

(19) رواه الآجري في «الشريعة» (1/437 ـ 438)، وابن بطَّة في الإبانة (2/508).

(20) انظر: «التمهيد» (1/66 ـ 67)، «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (2/821).

(21) «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني (ص125).

(22) «جامع بيان العلم وفضله» (2/942 ـ 943).

(23) «جامع بيان العلم وفضله» (2/942 ـ 943) بتصرف.

(24) «الفروق» (4/202).

الرَّدِّ عليهم، فكتب إليه مالك: «إنَّك إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل أو تهلك، لا يردُّ عليهم إلاَّ من كان ضابطًا عارفًا بما يقول لهم، ليس يقدرون أن يعرجوا عليه، فإنَّ هذا لا بأس به، وأمَّا غير هذا فإنِّي أخاف أن يكلِّمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه، أو يظفروا منه بشيء فيتعلَّقوا به ويزدادوا تماديًا على ذلك»[25]، حرصًا من الإمام مالك رحمه الله في ألاَّ يناظر أهل البدع إلاَّ من كان ذا علم وفقه في دين الله، عارفًا بمساوئ مذاهب أهل الباطل، بصيرًا في نقدهم ودحض شبههم، فيظهر به الدين ويعلو به الحقُّ.

وكان البهلول بن راشد (ت183هـ) معروفًا بالنَّكير على أهل البدع وتركه السَّلام عليهم، قال عنه تلميذه سحنون: إنَّما اقتديت في ترك السَّلام على أهل الأهواء والصَّلاة خلفهم بمعلِّمي البهلول[26]، وكان من شدَّته في الإنكار على أهل البدع أن هجر سحنونًا حين حادث أحد أهل البدع، قال سحنون رحمه الله: «ولقد أتيت يومًا إلى البهلول فوافاني رجل من أهل الأهواء على بابه، وسألني عن الشَّيخ، فما رددت عليه جوابًا، والشَّيخ يسمع ذلك، فلمَّا دخلت على الشَّيخ سلَّمت عليه، فلم يردَّ عليَّ السَّلام، وأعرض عنِّي، فلمَّا خرج النَّاس من عنده تقدَّمت إليه، فجثوت على ركبتي بين يديه، فقلت له: ما خبري وما قصَّتي؟ فقال: يسلِّم عليك رجل من أهل الأهواء ويسألك عنِّي!، فقلت له: والله ما رددت عليه جوابًا، قال: فقام لي عند ذلك وقال: مرحبًا وأهلاً، وسلَّم عليَّ وقال لي: إنَّ هذا الَّذي أمرتك به تعرف به الحقَّ من الباطل»[27].

ومن مواقف هذين الإمامين ـ رحمهما الله ـ أعني ابن فروخ والبهلول ـ الَّتي حفظها لهما أهل التَّراجم في النَّكير على أهل البدع، ما حكاه عنهما سحنون قائلاً: «مات رجل يقال له: الرفَّاء[28]، وكان من أصحاب البهلول، وكان فاضلاً، فحضره ابن غانم وابن فروخ والبهلول، فأتي بجنازته وبجنازة ابن صخر المعتزلي، فصلِّيَ على الرفَّاء ثمَّ قدِّم ابن صخر المعتزلي، فقالوا لابن غانم: «الجنازة!»، فقال: «كلُّ حيٍّ ميت فقدِّموا دابَّتي»، ولم يصلِّ عليه، فقيل لابن فروخ: «الجنازة!»، فقال مثل ذلك، وقام ولم يصلِّ عليه، وقيل للبهلول: «الجنازة!»، فقال مثل ذلك»[29].

وهذا أسد بن الفرات (ت213هـ) مشهور بالفضل والدِّين، متمسِّك بالسُّنَّة، نابذ للبدعة، والَّذي بلغ من نهيه رحمه الله عن البدع أن كان يحدِّث بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة، وسليمان العراقي[30] عند آخر المسجد،

(25) «رياض النفوس» (1/177).

(26) «رياض النفوس» (1/203).

(27) المصدر نفسه (1/204).

(28) لم أقف على ترجمته.

(29) «طبقات أبي العرب» (ص34)، «رياض النفوس» (1/186).

(30) هو سليمان بن أبي عصفور حفص الفرَّاء المعتزلي، كان ممَّن يقول بخلق القرآن وذا جدل ومناظرة في ذلك، رحل ودخل بغداد، وله مؤلفات في الاعتزال ودعوة إليه، توفي سنة 269هـ، انظر ترجمته في «طبقات الخشني» (ص219)، «البيان المغرب» (1/119).

فتكلَّم وأنكر، فسمعه فقام إليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله، فضربه ضربًا شديدًا حتَّى أدماه[31]، وكان يقول رحمه الله: «ثلاثة لا غيبة فيهم: صاحب بدعة...»[32].

ولأجل هذه المواقف وأمثالها كتب أسد ابن موسى (ت212) ـ المعروف بأسد السُّنَّة ـ إلى أسد ابن الفرات يشجِّعه لما علم من حاله في التَّمسُّك بالسُّنَّة والنَّهي عن البدعة؛ فقال:

«اعلم أي أُخَيَّ! إنَّما حملني على الكتاب إليك ما ذكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك الله من إنصافك النَّاس وحسن حالك ممَّا أظهرت من السُّنَّة، وعيبك لأهل البدعة، وكثرة ذكرك لهم، وطعنك عليهم، فقمعهم الله بك وشدَّ بك ظهر أهل السُّنَّة وقوَّاك عليهم بإظهار عيبهم والطَّعن عليهم، فأذلَّهم الله بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين، فأبشر أي أُخَي بثواب ذلك واعتدّ به من أفضل حسناتك من الصَّلاة والصِّيام والحجِّ والجهاد وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب الله وإحياء سنَّة رسوله ﷺ ...، وادع إلى السُّنَّة حتَّى يكون لك في ذلك أُلفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث فيكونون أئمَّة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر...، وإيَّاك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب...، وقد وقعت اللَّعنة من رسول الله ﷺ على أهل البدع، وأنَّ الله لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً ولا فريضة ولا تطوعًا، وكلَّما ازدادوا اجتهادًا وصومًا وصلاة ازدادوا من الله بعدًا، فارفض مجالسهم وأذلَّهم وأبعدهم كما أبعدهم الله وأذلَّهم رسوله ﷺ وأئمَّة الهدى من بعده»[33].

ومنهم سحنون بن سعيد التنوخي (ت240هـ) رحمه الله الَّذي عرف بشدَّته على أهل البدع؛ والَّذي ما أن تولَّى منصب القضاء بالقيروان حتَّى فضَّ حلق أهل البدع والأهواء في مسجد القيروان، وكانوا حلقًا للصُّفرية والإباضيَّة والمعتزلة، كما أنَّه منعهم أن يكونوا أئمَّة في المساجد أو معلِّمين للصِّبيان ومؤدِّبين لهم، وعاقب جماعة منهم خالفوا أمره وأطافهم بالقيروان[34].

وقام محمد بن سحنون (ت256هـ) بحمل لواء السُّنَّة من بعد والده، وكان رحمه الله واسع المعرفة، عالمًا بالأثر، خبيرًا بالجدل، قوي الحجَّة في المناظرة، له مؤلَّفات عدَّة في الرَّدِّ على أهل البدع، وقد كان من قبله من العلماء يكتفون بالفتاوى أو المواقف الفرديَّة ضدَّ المخالفين، ذلك أنَّ أهل البدع أقبلوا على تدوين آرائهم ونشر كتب منتحلي مذاهبهم من أهل المشرق، ممَّا دعا علماء المالكيَّة في عصر محمَّد ومن بعده إلى التَّأليف والمناظرة، لنصرة الحقِّ وإبطال الأهواء والبدع، فمن مؤلَّفات محمَّد بن سحنون رحمه الله كتابان في «الإمامة»، وله كتاب «الإيمان والرَّدُّ على أهل الشِّرك» وكتاب «الحجَّة على القدرية» وآخر في «الرَّدِّ على أهل

(31) «رياض النفوس» (1/264 ـ 265).

(32) «رياض النفوس» (1/268).

(33) كتاب فيه ما جاء في البدع لابن وضَّاح (ص34 ـ 38).

(34) «ترتيب المدارك» (4/60).

البدع» و«رسالة فيمن سبَّ النَّبيَّ ﷺ»[35] وله مناظرات مع بعض المعتزلة[36].

ومنهم محمَّد بن وضَّاح القرطبي (ت287هـ)، ألَّف كتابًا جليلاً في البدعة وما يتعلَّق بها؛ اعتبر أقدم مصدر في هذا الباب، وقد بان فيه تمسُّكه القويّ بالسُّنَّة وآثار السَّلف وبغضه للبدع وشدَّة إنكاره لها وسمَّاه «كتاب فيه ما جاء في البدع»، عرض فيه الأحاديث والآثار الواردة عن السَّلف في ذمِّ الابتداع في الدِّين.

ومنهم حمديس القطَّان (ت289هـ)؛ الَّذي كان شديدًا في مذاهب أهل السُّنَّة، مفارقًا لأهل البدع، لا يسلِّم عليهم ولا يصلِّي خلفهم ولا يحضر جنائزهم[37].

ومنهم يحيى بن عمر (ت289هـ) وكان كثير الإنكار للبدع والمحدثات، وله تآليف عدَّة في الرَّدِّ على أهل البدع، منها كتاب في الرَّدِّ على المرجئة[38].

ومنهم محمَّد بن أحمد الفارسي (ت359هـ) وكان متمسِّكًا بالسُّنَّة، شديد الإنكار على أهل البدع، صلبًا في ذلك، وكانت له مواقف امتحن فيها لأجل صلابته في السُّنَّة.

ومنهم المحدِّث الإمام أحمد بن عون الله ابن حدير أبي جعفر الأندلسي القرطبي (ت378هـ)، وكان رحمه الله صارمًا في السُّنَّة، متشدِّدًا على أهل البدع، لهجا بهذا النَّوع، صبورًا على الأذى فيه[39]، قال عنه أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن مفرج: «كان أبو جعفر أحمد بن عون الله محتسبًا على أهل البدع، غليظًا عليهم، مذلاً لهم، طالبًا لمساوئهم، مسارعًا في مضارِّهم، شديد الوطأة عليهم، مشرِّدًا لهم إذا تمكَّن منهم، غير مبقٍ عليهم، وكان كلُّ من كان منهم خائفًا منه على نفسه متوقِّيًا، لا يداهن أحدًا منهم على حال ولا يسالمه، وإن عثر لأحد منهم على منكر وشُهد عليه عنده بانحرافٍ عن السُّنَّة نابذه وفضحه وأعلن بذكره والبراءة منه، وعيَّره بذكر السُّوء في المحافل، وأغرى به حتَّى يهلكه أو ينزع عن قبيح مذهبه وسوء معتقده، ولم يزل دؤوبًا على هذا جاهدًا فيه ابتغاء وجه الله إلى أن لقي الله ﷻ»[40].

ومنهم الإمام أبو محمَّد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت386هـ)، الَّذي كان يلقَّب بـ«مالك الصَّغير»، له مؤلَّفات عدَّة نصر فيها عقيدة السَّلف كما في مقدِّمة كتابه «الرِّسالة» في الفقه المالكي وفيها يقول: «واتِّباع السَّلف الصَّالح واقتفاء آثارهم، والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدِّين، وترك كلِّ ما أحدثه

(35) ورد ذكر هذه المؤلَّفات في «ترتيب المدارك» (204/4)، «الديباج المذهب» (129/2)، و«شجرة النور» (ص70).

(36) انظر على سبيل المثال: «رياض النفوس» (449/1).

(37) ترجمته في «رياض النفوس» (488/1)، «ترتيب المدارك» (379/4).

(38) «رياض النفوس» (490/1).

(39) «تاريخ العلماء» لابن الفرضي (68/1).

(40) «تاريخ دمشق» (118/5).

المحدثون»[41]، و«كتاب الجامع في السُّنن والآداب والمغازي والتَّاريخ» والَّذي عقد فيه بابًا بعنوان: «باب ذكر السُّنن الَّتي خلافها البدع وذكر الاقتداء والاتِّباع وشيء من فضل الصَّحابة ومجانبة أهل البدع»[42]، وأورد فيه الأحاديث الدالَّة على ضرورة التَّمسُّك بالسُّنَّة والابتعاد عن البدعة، كما أنَّه أورد آثارًا عديدة عن أئمَّة السَّلف في النَّهي عن البدع وعلم الكلام، وأقوالهم في الفرق المنحرفة كالخوارج، وفي آخر الباب يقول رحمه الله: «وكلُّ ما قدَّمنا ذكره فهو قول أهل السُّنَّة وأئمَّة النَّاس في الفقه والحديث على ما بيَّنَّاه، وكلُّه قول لمالك، فمنه منصوص من قوله، ومنه معلوم من مذهبه»[43]، ومن كتبه في الرَّدِّ على البدع والفرق الضَّالَّة كتابه في «النَّهي عن الجدال» و«رسالة في الرَّدِّ على القدريَّة»، وكتاب «في الرَّدِّ على أبي ميسرة المارق»، وآخر «في مناقضة رسالة البغدادي المعتزلي»[44].

ومنهم الإمام ابن أبي زمنين (ت399هـ)؛ العالم القدوة المقتفي لآثار السَّلف، له كتاب «أصول السُّنَّة» كما تقدم معنا، أبان فيه عن عقيدة أهل السُّنَّة، والَّذي نقل منه الأئمَّة كشيخ الإسلام ابن تيميَّة[45]، وابن القيِّم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة» (ص81).

وقد عقد ابن أبي زمنين في كتابه هذا بابين في الرَّدِّ على أهل البدع وساق فيهما الأحاديث والآثار الواردة في ذلك بإسناده إلى قائليها، أمَّا الباب الأوَّل فهو: «باب في النَّهي عن مجالسة أهل الأهواء»، والثَّاني: «في استتابة أهل الأهواء واختلاف أهل العلم في تكفيرهم»، ومن كلامه في عيب أهل البدع قوله: «ولم يزل أهل السُّنَّة يعيبون أهل الأهواء المضلَّة، وينهون عن مجالستهم ويخوفون فتنتهم، ويخبرون بخلاقهم، ولا يرون ذلك غيبة لهم ولا طعنًا عليهم»[46].

ومن هؤلاء الأعلام الإمام أبو عمر الطلمنكي (ت429هـ)، أحد أئمَّة السُّنَّة بالأندلس، وكان رحمه الله عارفًا بأصول الدِّيانة على هدى واستقامة، معروفًا بشدَّته على أهل الأهواء والبدع، وكان سيفًا مجرَّدًا عليهم، قامعًا لهم غيورًا على الشَّريعة، له مصنَّفات عدَّة في الذَّبِّ عن السُّنَّة وردِّ البدع، فمنها كتاب «الوصول إلى معرفة الأصول»[47] اعتمده كثير من علماء السُّنَّة ونقلوا منه في كتب الاعتقاد كشيخ الإسلام ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل»[48]، وفي «بيان تلبيس الجهميَّة في تأسيس بدعهم الكلاميَّة»[49]، وفي «منهاج

(41) «الرسالة» (ص9).

(42) «الجامع في السنن والآداب» (ص105).

(43) «الجامع في السنن والآداب» (ص117).

(44) انظر: «معالم الإيمان» (111/3) ـ تحقيق ماضور، «السير» (11/17)، «الديباج» (ص223)، «هديَّة العارفين» (447/1)، «مقدِّمة الجامع» لابن أبي زيد بقلم أبي الأجفان.

(45) انظر: «مجموع الفتاوى» (5/54 ـ 58).

(46) «أصول السُّنَّة» (ص293).

(47) انظر: «الديباج المذهب» (179/1).

(48) (250/6).

(49) (38/2).

السُّنَّة»[50]، ونقل منه ابن القيِّم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلاميَّة على غزو المعطِّلة والجهميَّة»[51]، وفي كتابه «الصَّواعق المرسلة على الجهميَّة والمعطِّلة»[52]، والذَّهبي في كتابه «العلوّ»[53]، ومن كتب الطلمنكي أيضًا «كتاب في الرَّدِّ على ابن مسرَّة»، و«رسالة في أصول الدِّيانات».

ومنهم أبو عمرو الدَّاني (ت444هـ)، الَّذي كانت له جهود وافرة في الرَّدِّ على أهل البدع والزَّيغ والضَّلالة، من ذلك ما عقده في كتابه «الرِّسالة الوافية» قائلاً: «فصل في ذمِّ أهل البدع ومذهبهم»[54] سرد فيه الآيات والأحاديث والآثار الواردة عن السَّلف في نبذ البدعة، والتَّحذير من الفرق الضَّالَّة كالخوارج والمعتزلة والرَّافضة والجهميَّة والمرجئة والقدرية، ودعوة السَّلف إلى عدم مجالستهم والخوض في أهوائهم...، وسلك المنهج نفسه رحمه الله في كتابه «السُّنن الورادة في الفتن وغوائلها والسَّاعة وأشراطها» حيث أورد اثني عشر أثرًا، ما بين مرفوع إلى النَّبيِّ ﷺ وموقوف عن الصَّحابة، تحت باب: «ما جاء في ظهور البدع والأهواء المضلة وإحيائها وإماتة السُّنن»[55]، فيها الدّلالة على نبذ الأهواء

(50) (28/1).

(51) (ص67 ـ 68).

(52) (1284/4).

(53) انظر: «مختصر العلو للعليِّ الغفَّار» للذهبي (ص264)، باختصار الألباني.

(54) «الرسالة الوافية» (ص147 ـ 166).

(55) انظر (611 ـ 626).

والبدع، ومجيء زمن تظهر فيه البدع كالخوارج والقدريَّة، وتصير البدع عند النَّاس هي السُّنن، حتَّى إذا ما أنكرها منكر قيل: غُيِّرت السُّنة، تنبيها منه على ضرورة لزوم السُّنة ومجانبة البدعة وأهلها.

ومن جهوده أيضًا رحمه الله ما أورده الذَّهبي في «السِّير» من أرجوزته في ذمِّ البدع وتعيير محدثيها من رؤوس الضَّلالة، حتَّى يجتنب النَّاس أهواءهم، ويحذروا اتِّباع آرائهم، فمن تلك الأبيات قوله[56]:

واطّرح الأهواء والمراء
وكلّ قول ولّد الآراء

ومن هؤلاء الأعلام المالكيَّة الإمام ابن عبد البرِّ (ت463هـ) رحمه الله حافظ المغرب وعالمه، ذو التَّصانيف العديدة المليحة كـ«التَّمهيد» و«الاستذكار» و«جامع بيان العلم وفضله»، أنكر فيها الكثير من البدع والمحدثات سواء في الاعتقاد أو العبادات، ومن كلامه في ذمِّ أهل البدع عمومًا ما بيَّنه رحمه الله من فساد مسلكهم إذ يقول: «أهل البدع أجمع أضربوا عن السُّنَّة، وتأوَّلوا الكتاب على غير ما بيَّنت السُّنَّة فضلُّوا وأضلُّوا، ونعوذ بالله من الخذلان ونسأله التَّوفيق والعصمة برحمته...»[57].

ويقول أيضًا: «لا خير في شيء من مذاهب أهل الكلام كلّهم وبالله التَّوفيق»[58]، بل ونقل

(56) «السير» (82/18).

(57) «جامع بيان العلم وفضله» (1199/2).

(58) «الجامع» (944/2).

إجماع أهل العلم على ذمِّ أهل الكلام، فقال: «أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أنَّ أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدُّون عند الجميع في طبقات الفقهاء، وإنَّما العلماء أهل الأثر والتَّفقُّه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم»[59]، ومن شدَّته على أهل البدع أن قال: «ولا بأس بهجر أهل البدع ومقاطعتهم وترك السَّلام عليهم»[60] حتَّى يرجعوا إلى السُّنَّة.

ومنهم الإمام أبو بكر محمَّد بن الوليد الطّرطوشي (ت530هـ) رحمه الله، له كتاب نفيس قيِّم في إنكار البدع، سمَّاه: «كتاب الحوادث والبدع» تعرَّض من خلاله إلى تتبُّع المحدثات الموجودة في عصره، وكشف عن وجه مناقضتها للشَّريعة، وفساد مآخذ أصحابها، بالدَّليل والحجَّة، وقد بيَّن غرضه من هذا التَّأليف فقال: «هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملاً من بدع الأمور ومحدثاتها، الَّتي ليس لها أصل في كتاب، ولا سنَّة، ولا إجماع، ولا غيره»، وممَّا بيَّنه رحمه الله في مؤلَّفه هذا أنَّ البدع لا يمكن حصر سبلها وتعدادها، وإنَّما الَّذي ينحصر مداركها، حيث يقول: «اعلم أنَّ ما حدث في سائر بلاد أهل الإسلام من هذه المنكرات والبدع لا مطمع لأحد في حصرها؛ لأنَّها خطأ وباطل».

ومنهم أبو عبد الله القرطبي (ت671هـ) رحمه الله ممَّن أنكر بدعًا كثيرة في تفسيره القيِّم «الجامع لأحكام القرآن»، وحذَّر من الابتداع في الدِّين، كما عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ الآية [آل عمران: 106 ـ 107]، حيث يقول: «فمن بدَّل أو غيَّر أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، المُبْتَعَدِين منه، المسودي الوجوه، وأشدُّهم طردًا وإبعادًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فِرَقِها، والرَّوافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلُّهم مبدِّلون ومبتدعون، وكذلك الظَّلمة المسرفون في الظُّلم والجور وطمس الحقِّ وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزَّيغ والأهواء والبدع، كلٌّ يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية والخبر كما بيَّنَّا، ولا يخلد في النَّار إلاَّ كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبَّة خردل من إيمان»[61].

ويقول ابن الحاج المالكي (ت737هـ) في كتابه «المدخل»[62] الَّذي يعتبر من أجمع ما ألَّف المالكيَّة في التَّنصيص على البدع والمنكرات، فيقول في معرض التَّحذير من الابتداع: «وليحذر ـ أي العالم ـ أن يغترَّ أو يميل إلى بدعة لدليل قام عنده على إباحتها من أجل استئناس النُّفوس

(59) «الجامع» (942/2).

(60) «الكافي في فروع المالكية» لابن عبد البر (1138/2).

(61) في «تفسيره» (168/4).

(62) إلاَّ أنَّ مؤلِّفه كان متأثِّرًا إلى حدٍّ كبير بمذاهب الصُّوفيَّة وخزعبلاتهم. [التحرير]



بالعوائد أو بفتوى مفتٍ قد وهم أو نسي أو جرى عليه من الأعذار ما يجري على البشر وهو كثير، بل إذا نقل إباحة شيء من هذه الأمور عن أحد من العلماء؛ فينبغي للعالم بل يجب عليه أن ينظر إلى مأخذ العالم للمسألة، وتجويزه إيَّاها، من أين اخترعها وكيفيَّة إجازته لها؛ لأنَّ هذا الدِّين والحمد لله محفوظ فلا يمكن لأحد أن يقول فيه قولاً ويتركه بغير دليل، ولو فعل ذلك أحد لم يقبل منه، وهو مردود عليه؛ إلاَّ أن تكون قواعد الشَّرع تشهد بصحَّته فيرجع للقواعد وللدَّلائل القائمة، ويكون قول هذا العالم بيانًا وتفهيمًا وبسطًا للقواعد والدّلائل، وإن أتى على ما يقوله بدليل فينظر في الدَّليل؛ فإن كان موافقًا قُبل وكان له أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن كان مخالفا لم يقبل وكان له أجر واحد وهو أجر الاجتهاد، وذلك راجع إلى نيَّته وجدّه ونظره...»[63].

وممّن له عناية من المالكيَّة في نصرة السُّنَّة والرَّدِّ على أهل البدع؛ وتقعيد قواعد في بيان مآخذ أهلها، وكشف عوار مناهج منتحليها، وصارت مؤلَّفاته عمدة لكلٍّ من كتب من بعده في هذا الباب؛ أبو إسحاق الشَّاطبي الغرناطي (ت790هـ) رحمه الله، فقد كانت له جهود جبَّارة في دعوة أهل بلده للأخذ بما كان عليه السَّلف الأوائل وترك ما أحدثه المحدثون واخترعه المبتدعون، ولأجل تبيان هذا الأصل العظيم ألَّف رحمه الله كتاب «الاعتصام» الَّذي لم يسبقه أحد في تأليف مستقلٍّ على منواله، وقد ذكر في مقدّمته ما دفعه لوضع هذا الكتاب فقال: «لم أزل أتتبَّع البدع الَّتي نبَّه عليها رسول الله ﷺ، وحذَّر منها، وبيَّن أنَّها ضلالة وخروج عن الجادَّة، وأشار العلماء إلى تمييزها والتَّعريف بجملة منها؛ لعلّي أجتنبها فيما استطعت، وأبحث عن السُّنن الَّتي كادت تطفئ نورها تلك المحدثات؛ لعلّي أجلو بالعمل سناها، وأُعَدُّ يوم القيامة فيمن أحياها، إذ ما من بدعة تحدث إلاَّ ويموت من السُّنن ما هو في مقابلها حسبما جاء عن السَّلف في ذلك...، فرجوت بالنَّظر في هذا الموضع الانتظام في سلك من أحيا سنَّة وأمات بدعة»[64]، فجاء كتابه في عشرة أبواب أقام فيه البيِّنة على فساد الابتداع في الدِّين، ولم يترك فيها لمبتدع حجَّة، ولا لمتأوِّل شبهة، فجزاه الله خير الجزاء وتجاوز عنه فيما أخطأ فيه بعفوه وكرمه.

ولم تزل جهود علماء المالكيَّة في المغرب متواصلة في التَّحذير من البدع والأهواء، لاسيما بدع الطُّرقيَّة المتصوِّفة، وما أحدثوه من طقوس وعادات ما أنزل الله بها من سلطان، والله الموفّق.

---

(63) «المدخل» (1/162 ـ 163).

(64) «الاعتصام» (1/24، 29).

زجر السفهاء عن أكل لحوم العلماء

إبراهيم بن حليمة
إمام خطيب، الجزائر

لقد كنَّا نظنُّ أنَّ الطَّعن في العلماء الرَّبَّانيِّين؛ خصلةٌ من خصال التَّالفين، قد عُفِي أثرُها ونُسِي خبرُها، فإذْ بنا نُفَاجأ بها تطلع علينا من جديد، وتطلُّ بقرنها من بعيد، ولا غَرْوَ؛ فإنَّ الأمر كما قيل: «لكلِّ قوم وارث».

ووارث أولئك التَّالفين جاهلٌ في زيِّ «فقيه»، وإن شئت أبدلْ أوَّلها بسين ثمَّ فاء؛ يستقِمْ لك المعنى يا نبيه!

خَبَرُ ذلك أنَّ هذا «السَّف...» ـ عفوًا «الفقيه» ـ تذكَّر مآثر(!) أجداده؛ فأراد أن يُحْيِيَها من جديد، فبرى قلمَه (ولكن من الأدب!)، وصار يُسوِّدُ في كلِّ جريدة سنحت له الفرصةُ أن يقيء فيها ما بَلَع، فكشف عن وجهه ولِقناع الحياء خلع، فلم يُسعِفه قلمُه (ولا قلبُه) إلاَّ بالحطِّ على أهل السُّنَّة من العلماء، شأنَ العابثين من السُّفهاء، وليتَه تدبَّر قولَ الملِكِ الدَّيَّان: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب]، فكيف إذا كان أولئك المؤمنون ممَّن يُظنُّ بأنَّهم من أولياء الله؟! كما قال الإمامان الجليلان أبو حنيفة والشَّافعي ـ رحمهما الله ـ: «إنْ لم يكن العلماءُ أولياءَ الله فليس لله وليٌّ»[1]، وفي هذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**»[2]، ويا ويح من آذنه اللهُ بالحرب!

ثمَّ ياليت هذا المسكينَ اطَّلع على كلمة الإمام ابن عساكر الَّتي يُذكِّر بها أمثالَه، إن كان له مُسكَةُ عقلٍ وأنَّى له! إذ يقول رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم يا أخي! وفَّقنا اللهُ وإيَّاك لمرضاته، وجعلنا ممَّن يخشاه ويتَّقيه حقَّ تُقاته: أنَّ لُحومَ العُلماءِ ـ رحمة الله عليهم ـ مسمومةٌ، وعادة الله في هتك أستار مُنتقِصيهم معلومة؛ لأنَّ الوقيعةَ فيهم بما هم منه براء أمرُه عظيم، والتَّناولَ لأعراضهم بالزُّور والافتراءِ مرتَعٌ وخيم، والاختلاقَ على من اختاره الله منهم لنعشِ العلم خُلُقٌ ذميم، والاقتداءَ بما مَدَح اللهُ به قولَ المُتَّبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصفٌ كريم، إذ قال مُثنيًا عليهم في كتابه ـ وهو بمكارم الأخلاق وضدِّها عليم ـ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ

(1) انظر: «التِّبيان» (ص29)/ ابن حزم ـ الطَّبعة الرَّابعة، و«مقدِّمة المجموع شرح المهذَّب» (ص61)/ دار عالم الكتب ـ الطَّبعة الأولى، كلاهما للنَّووي.

(2) رواه البخاري (6502) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر]، والارتكابَ لنهي النَّبيِّ ﷺ عن الاغتياب وسبِّ الأمواتِ جسيمٌ، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾[3].

وقال - رحمةُ الله عليه - في موضع آخر: «وكلُّ من أطلق لسانه في العلماء بالثَّلب[4] بلاه الله عَزَّوَجَلَّ قبل موته بموت القلب»[5]، وإنَّما مَثَلُ صاحبنا هذا ومَثَلُ العُلماء؛ كمثل طفل فَطِيمٍ بدأ يكتشف الأمور ويتعرَّف على الأشياء، إذ مَثُل أمام ناظِرَيْه - يومًا - رجلٌ عِملاق فبصُرَت عينُه خيط نعلِه، فراح يَشدُّه منه ويلعب به، لا يبغي به بدلاً ولا يريدُ عنه حِولاً، ولو رفع هذا الصَّبيُّ رأسَه ليُدرِك مُنتهى هذا العملاق لوقع على قفاه يبكي، فخبِّروني بربِّكم: هل يكترث هذا العملاق بعَبَث هذا الصَّبيِّ ولَعِبه، أم أنَّه يُشفِق عليه ويداريه ثمَّ يذهب لشأنه؟

وإن شِئتُم فحالُ هذا المُتهوِّر كحال رجل اتَّخذ مِعْوَلاً ووقف أمام جبلٍ شاهقٍ يَرُوم هدَّه، حتَّى إذا استوى الجبل - في ظنِّه - وصار دكًّا؛ أشار إليه النَّاس بأصابعهم: ذاك هو البطل الَّذي هدَّ الجبل! أتُراه يستطيع ذلك؟ أم أنَّه يُوشِك أن يُرسِل عليه الجبل - بأمر ربِّه - صخرةً من صُخُوره تنتهي بها أيَّامُ حياتِه؟! وموتُ هذا خيرٌ من حياته.

يا ناطح الجبل العالي ليُوهِنه
أشفق على الرَّأس لا تُشفِق على الجبل

وإنَّما حال هذا التَّالِف كحال الوَعِل (وهو التَّيس الجبلي) الَّذي يُضرب به المثل في الحمق، وفيه قال الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليَفلِقَها
فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

وياليت صفيق الوجه هذا وجَّه سلاحَه لمن يُظنُّ بأنَّهم من أقرانه وأترابه، بل أبت عليه همَّتُه العالية! إلاَّ أن يتسلَّق إلى نعل العِملاق! فراح بتنفُّخِه الغثِّ وتنمُّرِه المشين؛ يقدح في المتقدِّمين كالإمام البربهاري وشيخ الإسلام ابن تيميَّة تارة، ويطعن في المعاصرين مثل العلاَّمة الألباني أخرى، ولا ندري لمن يكون الحظُّ في القادمة! وكلُّ واحد من هؤلاء الَّذين ذكرنا قد أفضى إلى ربِّه تاركًا وراءه حدائقَ يانعةً يتفيَّؤ في ظلال أشجارها الوارفةِ كلُّ من أتى بعدهم من المسلمين، ومخلِّفًا أعمالاً في خدمة الإسلام والمسلمين تنوءُ بالعُصبة أولي القوَّة من حملة العلم وطلاَّبه، أفيُقَابَل هذا الجميل بالجُحود والكُفران؟! أم أنَّ الأمرَ كما قال الرَّحمن: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن]؟!

فأنت ترى كيف ينال هذا التَّافه من خير هذه الأمَّة ممَّن ذكرنا من أفاضل العلماء، «ولو

(3) «تبيين كذب المفتري...» (ص29 - 30) لأبي القاسم ابن عساكر (ت571)/ ط. دار الكتاب العربي.

(4) أي: بالعيب.

(5) المصدر السَّابق (ص425).

بُعِثَ أحدُهم من مَرْقَدِهِ، ثمَّ نظر إليه نظرةً دون أن يتكلَّم؛ لألْجَمهُ العرقُ، ولصار لسانُه مُضغةً لا تتَلَجْلَجُ[6] بين فكَّيْه، من الهَيْبَةِ وحدها، لا من عِلْمِه الَّذي يَستخِفُّ به ويهزأ»، على حدِّ تعبير شيخ العربية في زماننا الأستاذ محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ[7].

ولكن ما حيلتنا في السُّفهاء؟! وقد نهانا ربُّنا أن نأتيَهم أموالنا الَّتي جعلها لنا قيمًا، وكم وكم أخذ السُّفهاء من أموال للمسلمين فأتلفوها وأكلوها بغير حقٍّ باسم الجمعيَّات الخيريَّة زعموا!! لا.. لا، ليس هذا موضوعَنا، ولكنِّي أردت أن أُنبِّه بأنَّ السُّفهاء لا ينبغي أن يُمكَّنوا ممَّا له شأن كالأموال، وأغلى وأعلى من الأموال العقول، لا ينبغي أن يُمكَّنوا من صُحفنا ومجلاَّتنا ليَطلعنوا في علمائنا وأولي الأحلام والنُّهى منَّا، ألا فلتُوقِفوا هذا الفساد العريض، يا من بأيديكم مقاليد الأمور!

ο ο ο

(6) اللَّجلَجة والتَّلَجلُج: التَّردُّد في الكلام، ولجلج اللُّقمةَ في فِيهِ: أدارها من غير مضغ. [«اللِّسان»: لجج].

(7) «المتنبِّي» (ص123).

قال الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ:

«جواب الأحمق السكوت عنه».

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«السُّكوت جواب، والتَّغافل يُطفئ شرًّا كثيرًا، ورضا المتجنِّي غاية لا تدرك، واستعطاف المحبِّ عونٌ للظَّفَر، ومن غضب على ما لا يقدر عليه طال حزنه».

[«شعب الإيمان» للبيهقي (8101)]

من أخلاق النَّبي ﷺ في حجة الوداع

د. رضا بوشامة
أستاذ الحديث بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

لم يحج النَّبيُّ ﷺ إلاَّ حجَّة واحدة وهي حجَّة الوداع، بيَّن لأمَّته فيها كثيرًا من أحكام الدِّين؛ من عقائد وعبادات وأخلاق وآداب، بَيَّن ذلك بفعله وقوله في هذا المنسك العظيم، ولا شكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانت أيَّامه وسيرته كلُّها أخلاقًا فاضلة وآدابًا رفيعةً جمَّله الله بها، لكن في أيَّام الحجِّ تتَّضح معالم تلك الأخلاق أكثر؛ إذ أنَّ النَّاس كلَّهم حريصون على لقائه ورؤيته والالتفاف حوله، آخذين عنه منسكه وأفعاله، فتكثر بذلك الجموع حول النَّبيِّ الكريم ﷺ، فيزداد بذلك صبرًا ورحمةً ورأفةً يعطي كلَّ مسلم حظَّه منه ﷺ، فلذلك لَمَّا تَسَامَعَ النَّاس بأنَّ النَّبيَّ ﷺ حاجّ تلك السَّنة تسارعوا للقائه ومصاحبته في هذه الشَّعيرة العظيمة، وحجَّ معه جمع غفير من النَّاس، منهم زوجاته وبناته وعشيرته، قال جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحجَّ، ثمَّ أذَّن في النَّاس في العاشرة: أنَّ رسول الله ﷺ حاجٌّ هذا العام؛ فقدم المدينة بَشَرٌ كثير»[1].

وفي رواية: «فلم يبق أحدٌ يقدر أن يأتي راكبًا أو راجلاً إلاَّ قدم، فتدارك النَّاس ليخرجوا معه»[2]، «كلُّهم يلتمس أن يأتَمَّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله»[3].

وقال أيضًا: «نظرت إلى مَدِّ بصري بين يديه، من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به»[4].

فهذا كلُّه يجعل خيرَ البشريَّة ﷺ يَستعدُّ للقاء كلّ أنواع النَّاس وأصنافهم وشرائحهم، بل منهم من لم يسبق له رؤياه ولقاءه، ممَّن كان عالي الخُلق وممَّن كان دون ذلك كالأعراب الغلاظ الجفاة، فأكرم الله تعالى نبيَّه ﷺ أن كان من أحسن النَّاس خُلقًا وأدبًا حتَّى في أشدِّ الأوقات وأعسرها.

وسأعرض في هذه الورقات بعض الوقفات الَّتي تنبئ عن شيمه وتبيِّن مزاياه ﷺ على سائر

(1) «صحيح مسلم» (1218) وأحمد (14440).

(2) «سنن النَّسائي» (2761).

(3) «صحيح مسلم» (1218).

(4) المصدر السَّابق.

الخلق، متَّبعًا في ذلك أيَّام حجَّته من يوم خروجه من المدينة حتَّى رجوعه إليها، مستنبطًا تلك الأخلاق الفاضلة من سيرته؛ لتكون نبراسًا ومنهجًا لحجَّاج بيت الله الحرام:

1 ـ الغضب على حُرمات الله لا يتنافى مع الأخلاق الحسنة:

فقد يعتقد البعض أنَّ كلَّ غضب يغضبه الإنسان محرَّم، وبأنَّه دليلٌ على سوء خلقه، ومخالف لهديه ﷺ، وهذا ليس بصواب؛ إذ أنَّه ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله ولا ينتقم لنفسه، وغضبه في ذات الله من كمال تقواه وعبوديته لربِّه.

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة ـ أو خمس ـ، فدخل عليَّ وهو غضبان، فقلت: مَن أغضبك يا رسول الله! أدخله الله النار، قال: «**أَوَمَا شَعَرْتِ أَنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِأَمْرٍ؛ فَإِذَا هُمْ يَتَرَدَّدُونَ** ـ قال الحكم: كأنَّهم يتردَّدون أحسب ـ **وَلَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ الهَدْيَ مَعِي حَتَّى أَشْتَرِيَهُ ثُمَّ أَحِلُّ كَمَا حَلُّوا**»[5].

فغضبه في هذه الحجَّة لم يكن لشخصه وذاته، بل كان لعدم امتثال بعضِ أصحابه أمرَه على الفور، وهذا من كمال خُلقه ﷺ، لذلك قال لهم ﷺ: «**قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبَرُّكُمْ، لَوْلاَ هَدْيِي لَحَلَلْتُ كَمَا تحلُونَ، فَحِلُّوا، فَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ**»، فحللنا وسمعنا وأطعنا»[6].

2 ـ حسن معاشرته ﷺ لأهله وصبره على قضاء الله وقدره:

تقدَّم أنَّ النَّبيَّ ﷺ اصطحب في هذه الحجَّة أزواجه، ولا شكَّ أنَّ هذا يحتاج إلى مزيد من الرِّعاية وحسن المعاشرة لكلِّ من اصطحبهم معه، وكلُّ واحدة من أزواجه أو بناته تحتاج إلى رعاية خاصَّة، فمنهنَّ من كانت تشتكي المرض كأمِّ سلمة رضي الله عنها حيث أرشدها أن تركب وتطوف من وراء النَّاس[7].

ودخل يوم التَّروية على عائشة رضي الله عنها فوجدها تبكي، فهمَّه ذلك وسأل عن سبب بكائها، ثمَّ أزاح عنها الغمَّ والهمَّ، قال جابر: «ثمَّ دخل رسول الله ﷺ على عائشة رضي الله عنها، فوجدها تبكي فقال: «**مَا شَأْنُكِ؟**» قالت: شأني أنِّي قد حضتُ، وقد حلَّ النَّاس ولم أَحْلِلْ، ولم أَطُف بالبيت، والنَّاس يَذهبون إلى الحجِّ الآن، فقال: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَاغْتَسِلِي ثُمَّ أَهِلِّي بِالحَجِّ**»، ففعلتْ ووقفت المواقف حتَّى إذا طهَرت طافت بالكعبة والصَّفا والمروة، ثمَّ قال: «**قَدْ حللتِ مِنْ حَجِّك وَعُمْرَتِكِ جَمِيعًا**»، فقالت: يا رسول الله! إنِّي أجد في نفسي أنِّي لم أطف بالبيت حتَّى حججتُ، قال: «**فَاذْهَبْ بِهَا يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ! فَأَعْمِرْهَا مِنَ التَّنْعِيمِ**»، وذلك ليلة الحَصْبَة»[8].

---

(5) «صحيح مسلم» (1211).

(6) «صحيح البخاري» (7367)، و«صحيح مسلم» (1216).

(7) «صحيح البخاري» (464)، و«صحيح مسلم» (1276).

(8) «صحيح مسلم» (1213).

وفي رواية أخرى: «وكان رسول الله ﷺ رجلاً سَهْلاً إذا هويت الشَّيء تابعها عليه، فأرسلها مع عبد الرَّحمن بن أبي بكر فأهلَّت بعمرة من التَّنعيم»[9].

قال القاضي عياض المالكي: «فيه حسن العشرة مع الأزواج ومساعدتهن، لا سيما فيما هو من باب الطَّاعات، وما كان عليه ﷺ من الخلق العظيم، وهو معنى قوله: «سهلاً»: أي حسن الخلق ميسرًا مساعدًا، لما وصفه الله تعالى»[10].

وقالت عائشة بعد أن فرغ من أداء مناسك الحجِّ: «ونزل رسول الله ﷺ المُحَصَّب؛ فدعا عبد الرَّحمن بن أبي بكر فقال: «**اخْرُجْ بِأُخْتِكَ مِنَ الحَرَمِ فَلْتُهِلَّ بعُمْرَةٍ، ثُمَّ لِتَطُفْ بالبَيْتِ، فَإِنِّي أَنْتَظِرُكُمَا هَا هُنَا**» قالت: فخرجنا فأهللتُ، ثمَّ طفت بالبيت وبالصَّفا والمروة، فجئنا رسول الله ﷺ وهو في منزله من جوف اللَّيل، فقال: هل فرغتِ؟ قلت: نعم، فأذَّن في أصحابه بالرَّحيل...»[11].

فلم يعنِّف ولم يغضب ولم يلزق بها سبب التَّأخُّر والتَّأخير، بل عاملها بأحسن ما يُعامل الرَّجل به زوجه، صبَّرها وطمأنها وعوَّضها عن عمرتها عمرةً بعد أعمال الحجِّ، ثمَّ انتظرها حتَّى إذا فرغت من عمرتها نادى بالرَّحيل.

فما نراه اليوم من اشتداد غضب الحجَّاج على نسائهم خاصَّة العجائز إن ألَمَّ بإحداهنَّ أمر من قضاء الله وقدره، كأن تضيع بين الأعداد الهائلة من الحجَّاج، ففور ما ترجع وتلقى زوجها أو أباها أو أخاها تسمع منه الشَّتم واللَّعن والغضب؛ لأنَّها أخَّرته عن بقيَّة رفقته، وهذا مثال واحد وعليه فقِس.

وأمَّا ما وقع في آخر هذه الحجَّة من دعائه ﷺ على صفيَّة لَمَّا حاضت وقالت: ما أُرَانِي إلاَّ حابستكم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**عَقْرى حَلْقَى، أَوَمَا كُنْتِ طُفْتِ يَوْمَ النَّحْرِ؟**» قالت: بلى، قال: «**لاَ بَأْسَ انْفِرِي**»[12].

فقوله: «**عَقْرَى حَلْقَى**»[13]؛ لم يُرد به حقيقة الدُّعاء عليها، بل هي كما قال النَّوويُّ: «هذا على مذهب العرب في الدُّعاء على الشَّيء من غير إرادة وقوعه... ثمَّ اتَّسعت العرب فيها فصارت تطلقها ولا تريد حقيقة ما وضعت له أوَّلاً، ونظيره: تَرِبَتْ يداه، وقاتله الله ما أشجعه، وما أشعره، والله أعلم»[14].

3 ـ صبره ﷺ على لقاء الحجيج ورؤيتهم له وردّه على استفتاءاتهم على كثرتهم:

فقد تقدَّم في حديث جابر أنَّ النَّاس خرجوا من كلِّ فجٍّ عميق ليشهدوا حجَّته ﷺ ويفعلوا مثل فعله، وهذا يتطلَّب أن يزاحموه ويلتفُّوا

(9) المصدر السَّابق.
(10) «إكمال المعلم» (4/255).
(11) «صحيح البخاري» (1560)، و«صحيح مسلم» (1211).

(12) «صحيح البخاري» (1561)، و«صحيح مسلم» (1211).
(13) عقرى حلقى: أي عقر الله جسدها وأصابها بوجع في حلقها. [«شرح مسلم» للنووي (8/154)] (التحرير)
(14) «شرح النَّووي على صحيح مسلم» (8/154).

حوله، فكان - صلوات الله وسلامه عليه - القائدَ والرَّاعي والمرشد والمعلِّم والأسوة، مع ما في الحجِّ من متاعب ومشاقٍّ، خاصَّة في تلك الأزمان الَّتي لا تتوفَّر فيها سبل الرَّاحة كما نراها اليوم، مع ذلك صبر عليهم ولم يدفعهم، إنَّما اكتفى بركوب ناقته ليراه الجميع ويأخذوا عنه نسكه، وهذا من معالي أخلاقه وسموِّها.

قال عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنَّ رسول الله ﷺ كثر عليه النَّاس يقولون: هذا محمَّد! هذا محمَّد! حتَّى خرج العواتق من البيوت، قال: وكان رسول الله ﷺ لا يُضربُ النَّاس بين يديه، فلمَّا كثر عليه ركب...»[15].

وقال أبو الطُّفيل لابن عبَّاس: «أُراني قد رأيتُ رسول الله ﷺ، قال: فصِفه لي، قال: قلت: رأيته عند المروة على ناقة وقد كثر النَّاس عليه، قال: فقال ابن عبَّاس: ذاك رسول الله ﷺ، إنَّهم كانوا لا يُدَعُّون عنه ولا يُكْهَرون»[16]، وفي لفظ: «وَلا يُكْرَهُونَ».

وعن قدامة بن عبد الله العامري رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ رمى الجمرة يوم النَّحر على ناقة له صهباء، لا ضرب، ولا طرد، ولا إليك إليك»[17].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «وقف رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع بمنًى للنَّاس يسألونه، فجاء رجلٌ فقال: يا رسول الله! لم أشعر فحلقت قبل أن أنحر؟ فقال: **اذْبَحْ وَلاَ حَرَجَ**، ثمَّ جاءه رجلٌ آخر فقال: يا رسول الله! لم أشعر فنحرتُ قبل أن أرمي؟ فقال: **إِرْمِ وَلاَ حَرَجَ**، قال: فما سُئل رسول الله ﷺ عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلاَّ قال: افعل ولا حرج»[18].

وهذا يجعلنا ندرك تلك المكانة السَّامية والأخلاق العالية الَّتي يمتاز بها ﷺ عن سائر الخلق، وهو القائل: «**المُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[19].

وهذا ما جعل النَّاس يتَّخذونه أسوة، ويُدركون حقَّ الإدراك أنَّه نبيٌّ مرسل من الله، جاء ليتمِّم مكارم ومحاسن الأخلاق، فأحبَّه النَّاس وقدَروه حقَّ قدره.

قال الحارث بن عمرو السَّهمي رضي الله عنه: «أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وهو بمنى أو بعَرَفَات وَقَدْ أَطَافَ به النَّاسُ، قال: فَتَجِيءُ الأَعْرَابُ فإذا رأوا وَجْهَهُ قالوا: هَذَا وَجْهٌ مُبَارَكٌ»[20].

4 - عنايته ﷺ بكبار السِّنِّ والعاجزين عن مزاحمة النَّاس بالتَّرخيص لهم في بعض الأعمال:

العاجز وكبير السِّنِّ تختلف بعض أحكامهما عن بقيَّة الحُجَّاج، لذلك راعى النَّبيُّ

---

(15) «صحيح مسلم» (1264).

(16) «صحيح مسلم» (1265).

(17) «سنن النسائي» (3061)، «سنن ابن ماجه» (3035)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» (2479).

(18) «صحيح البخاري» (1736)، «صحيح مسلم» (1306).

(19) «سنن ابن ماجه» (4032)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» (3273).

(20) «سنن أبي داود» (1742)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (1/488).

ﷺ أمرهم في هذا الموسم العظيم الّذي يكثر فيه التّزاحم والتّدافع وغير ذلك ممّا قد يُلحق الأذى بهؤلاء الضّعفة، فكان من رحمته ﷺ ورأفته بأمّته أن رخّص لهم يوم المزدلفة بالدّفع إلى منًى قبل النّاس، لئلاّ يصيبهم التّعب والنّصب ومزاحمة من يدفع بعد الانتهاء من الوقوف بالمشعر الحرام.

قالت عائشة رضي الله عنها: «استأذنت سودةُ رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة تدفع قبله، وقبل حَطْمة النّاس، وكانت امرأة ثبطة، - يقول القاسم: والثّبطَة الثّقيلة - قال: فأذن لها، فخرجت قبل دفعه، وحبسنا حتّى أصبحنا فدفعنا بدفعه»[21].

وقال ابن عبّاس: «بعثني رسول الله ﷺ في الثَّقَل أو قال في الضَّعَفة من جَمْعٍ بليل»[22].

5 - مداعبته ﷺ للصّغار وتعليمهم أمور دينهم وحرصه على ذلك:

ففي هذه الحجّة بيّن ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه الدّاعية والمرشد مع جميع فئات المجتمع، من تعليم وترشيد بلطف ومداعبة وحكمة، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: «قَدَّمنا رسول الله ﷺ أُغَيْلِمَةَ بني عبد المطّلب على حُمُراتٍ لنا من جَمع؛ فجعل يَلطَحُ أفخاذَنا: ويقول: **أُبَيْنِيَّ لاَ تَرْمُوا الجَمْرَةَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ**»[23].

(21) «صحيح البخاري» (1681)، و«صحيح مسلم» (1290).

(22) البخاري (1677) مسلم (1293).

(23) «سنن أبي داود» (1940)، «سنن النسائي» (5/270 - 272)، «سنن ابن ماجه» (3025) وصحّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» (2469).

و«اللَّطح»: الضّرب بالكفّ وليس بالشّديد.

فعلّم هؤلاء الصّغار مناسك الحجّ وأرشدهم بمداعبتهم وملاطفتهم؛ لأنّ المقام يدعو إلى ذلك، وكان أرفع النّاس خلقًا صلوات ربّي وسلامه عليه.

6 - رحمته ﷺ بالنّاس ورفقه بهم:

وهو نبيُّ الرّحمة والمبعوث رحمةً للعالمين، ووصفه ربُّه في كتابه بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وقد تجلّت مظاهر رحمته ورفقه ورأفته في مواضع عديدة في حجّته، إذ يسّر على النّاس كثيرًا من أعمال الحجّ، ورفع عنهم الحرج وخفّف على أصحاب الحاجات كإذنه لعمّه العبّاس أن يبيت خارج منًى، وكذا لرعاة الإبل جمع رمي يومين في يوم.

قال ابن القيّم: «وإذا كان النّبيُّ ﷺ قد رخّص لأهل السّقاية وللرّعاء في البيتوتة؛ فمَن له مال يخاف ضياعه أو مريض يخاف من تخلُّفه عنه أو كان مريضًا لا تمكنه البيتوتة سقطت عنه بتنبيه النّصّ على هؤلاء، والله أعلم»[24].

ومن رفقه ﷺ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال: **ارْكَبْهَا**، قال: يا رسول الله! إنّها بدنة، قال: **ارْكَبْهَا وَيْلَكَ!** في الثّانية أو في الثّالثة»[25].

(24) «زاد المعاد» (2/290).

(25) «صحيح البخاري» (1689)، و«صحيح مسلم» (1322).

ومن ذلك - أيضًا - أمر أصحابه بالرِّفق والسَّكينة وعدم مزاحمة الضَّعفة والحرص على عدم إيذاء الغير، فعن سليمان بن عمرو ابن الأَحْوصِ عن أمِّه قالت: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يَرْمِي الجمْرَةَ من بَطنِ الوادي وهو راكب يكبِّرُ مع كُلِّ حصَاةٍ ورَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ يَسْتُرُهُ، فسألتُ عن الرَّجُلِ، فقالوا: الفَضْلُ بنُ العَبَّاسِ، وَازْدَحَمَ النَّاسُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ! لاَ يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَإِذَا رَمَيْتُمُ الجَمْرَةَ فَارْمُوا بِمِثْلِ حَصَى الخَذْفِ**»[26]، وفي رواية: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ**....»[27].

7 - تواضعه ﷺ لجميع فئات النَّاس:

وهذا من حسن خلقه أنَّه يتواضع لكلِّ أحد، للصِّغار والكبار، والنِّساء والرِّجال، وهو المبعوث رحمةً للعالمين، بل أمره - تعالى - بذلك، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء].

ومظاهر تواضعه في الحجِّ كثيرة جدًّا، وتقدَّم بعض ذلك في بعض الأحاديث، ومن ذلك - أيضًا - أنَّه كان يشارك النَّاس في مطعمهم ومشربهم، ولم يكن يخصُّ نفسه بشيء من ذلك دون النَّاس، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ رسول الله ﷺ جاء إلى السِّقاية فاستسقى، فقال العبَّاس: يا فضل! اذهب إلى أمِّك فأت رسول الله بشراب من عندها، فقال: **اسْقِنِي**، قال: يا رسول الله! إنَّهم يجعلون أيديهم فيه! قال: **اسْقِنِي**، فشرب منه، ثمَّ أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال: **اعْمَلُوا، فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ**، ثمَّ قال: **لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ حَتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلَى هَذِهِ**، يعني عاتقه وأشار إلى عاتقه»[28].

قال ابن الملقِّن: «وفيه - أي في الحديث - استعمال التَّواضع؛ فإنَّهم كانوا يجعلون أيديهم فيه، ولم يُخصَّ بماء، كما أشار العبَّاس تسهيلاً على النَّاس... وفيه من التَّواضع - أيضًا - قوله: «**لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ حَتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلَى هَذِهِ**، يعني: عاتقه»[29].

ومن صور تواضعه أنَّه أردف أسامة بن زيد رضي الله عنه وهو من الموالي، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ أسامة كان رِدْف النَّبيِّ ﷺ من عرفة إلى المزدلفة، ثمَّ أردف الفضلَ من المزدلفة إلى منى»[30].

قال ابن الملقِّن: «فيه التَّواضع بالإرداف للرَّجل الكبير والسُّلطان الجليل»[31].

إلى غير ذلك من روائع الأمثلة في بيان تواضع سيِّد الخلق ﷺ ورأفته بالنَّاس وحبِّه لهم.

---

(26) «سنن أبي داود» (1966)، وحسَّنه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (2445).

(27) «المسند» أحمد (23227).

(28) «صحيح البخاري» (1635).

(29) «التَّوضيح شرح الجامع الصَّحيح» (11/450).

(30) «صحيح البخاري» (1544).

(31) «التَّوضيح» (11/128).

8 ـ وصيَّته ﷺ لأمَّته بحسن الخلق:

ولم يكتف ﷺ في هذه الحجَّة أن يُظهر للنَّاس الأخلاق الفاضلة بفعله، بل تعدَّى ذلك إلى قوله، فأوصاهم بهذا الأمر العظيم في مثل تلك الأيَّام المشهودة، فقد سُئل ما برُّ الحجِّ؟ فقال: «**إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَطِيبُ الكَلَامِ**»[32].

وأوصى بطاعة الوالدين، وصلة الأرحام والأقارب، فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع وهو يقول: «**أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأُخْتَكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»[33].

ووصيَّته بالنِّساء خيرًا وحسن معاشرتهنَّ مشهورة، كما في «صحيح مسلم» في خطبته يوم عرفة: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ**»[34].

وفي رواية: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ**»[35].

وقوله لعامَّة أمَّته وحثُّهم في تلك الحجَّة على التَّوادد والتَّحاب، ونهيهم عن التَّفرُّق والاختلاف: «**أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنَّهُ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ**»[36].

تلك هي بعض الأخلاق الشَّريفة والوصايا المنيفة الَّتي تحلَّى بها ﷺ في حجَّته، فكان نِعْمَ المعلِّم والمرشد والأسوة، فحريٌّ بكلِّ حاجٍّ يريد الخير لنفسه والكمال لحجِّه أن يأتسي به في أعماله وأخلاقه، فيرفق بالضَّعيف والكبير، ويعين ذا الحاجة والفقير، ويعلِّم الجاهل والصَّغير، ويُعوِّد لسانه الكلام الحسن الجميل، فيرجع وقد غُفرت ذنوبه، ومُحيت سيِّئاته، ونال الحظَّ الأوفر من قول سيِّد البشر ﷺ: «**مَنْ حَجَّ لِلهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[37]، والحمد لله ربِّ العالمين.

※ ※ ※

---

(32) «مستدرك الحاكم» (1/658)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (1264).

(33) «المعجم الكبير» للطَّبراني (484)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (1400).

(34) «صحيح مسلم» (1218).

(35) «جامع التِّرمذي» (3087)، وابن ماجه (1851)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (7880).

(36) «مسند أحمد» (20695)، وانظر: «صحيح مسلم» (2812).

(37) «صحيح البخاري» (1521)، و«صحيح مسلم» (1350).

الخوف من العذاب عند رؤية الغيم

محمد لوزاني
ليسانس في الشريعة الإسلامية ـ الجزائر

إنَّ أكثر النَّاس اليوم إذا رأوا سحابًا مُقْبلاً في السَّماء فرحوا به واستبشروا بمجيء المطر!

فهل هذا العمل منهم صحيح؟! وهل كان ذلك هو موقف رسول الله ﷺ إذا رأى سحابًا في السَّماء؟

تَذْكُرُ عَائِشَةُ رضي الله عنها حال النَّبيِّ ﷺ إذا رأى غَيْمًا فتقول: كَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةَ؟! قَالَتْ: فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ؛ فَقَالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾** [الأحقاف: 24]»[1].

وتمام الآية: ﴿**فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾**﴾.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إذَا رَأَى مخيلَةً فِي السَّماء، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، ودَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَا أَدْرِي؟ لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾**»[2].

«مخيلة»: سحابة يخال فيها المطر.

وفي رواية لمسلم عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ؛ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ**»، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَخَرَجَ وَدَخَلَ وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ؛ فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ! كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**».

فعادٌ كانوا قومًا كافرين، كذَّبوا نبيَّ الله هودًا عليه السلام وأصرُّوا على الشِّرك والكفر بالله، وقد أخبرنا الله في القرآن عن شدَّة كفرهم

(1) متَّفق عليه: البخاري (4829)، ومسلم (899).

(2) أخرجه البخاريُّ (3206) وغيره.



وعنادهم واستكبارهم، واحتقارهم لنبيِّهم وإساءة الأدب معه في القول والفعل فقال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣)﴾ [الأحقاف].

الأحقاف ـ جمع حقْف وهو: الجبل من الرَّمل، وعاد كانوا حيًّا باليمن، أهلَ رمل مشرفين على البحر.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)﴾ [الأعراف].

فمن كان هذا حاله، وهذا موقفه من توحيد الله، والدَّاعي إليه، وهو نهاية الكفر والطُّغيان، فلأن يخاف بأس الله وسخطه وانتقامه أولى من أن يفرح ويستبشر إذا هبَّت ريحٌ أو رأى سحابًا، فأولئك القوم عصوا اللَّهَ ربَّهم وكفروا به وكذَّبوا رسولَهم وأمِنوا مكرَ الله؛ فكانت النَّتيجة أنْ أتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، بل جاءهم من حيث استبشروا وظنُّوا أنَّ الغيث قد أتاهم.

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [الحاقة]، وما عذاب الله وانتقامه من الظالمين أين كانوا ببعيدٍ، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود].

فنبيُّنا ﷺ هو أعلم الخلق بالله تعالى وأشدُّهم له خشيةً، وأصحابُه رضي الله عنهم الَّذين كانوا معه هم خير النَّاس، وعصره أفضل العصور، ومع ذلك فقد علمتم حاله عند رؤيته للسَّحاب في السَّماء، وكيف أنَّ وجهه يتغيَّرَ وتُعرف فيه الكراهية؛ لأنَّه يخشى أن يكون فيه عذاب، ولا يذهب عنه ذلك حتى ينزل المطر أو ينجلي السحاب.

بل إنَّه ﷺ إذا كان مشتغلاً بشيء ولو كان صلاةً تركه إذا رأى سحابًا أو هبَّت ريحٌ وتوجَّه إلى الله بالدُّعاء، تقول عائشة رضي الله عنها: كان النَّبيُّ ﷺ إذا رأى سحابًا مقبلاً مِنْ أفقٍ مِنَ الآفاق ترك ما هو فيه ـ وإنْ كان في

الصلاة - حتَّى يستقبله، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أُرْسِلَ بِهِ**»، فإن أمطر قال: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا، اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**»، وإن كشفه الله ولم يمطر؛ حمد الله على ذلك[3].

وفي رواية لابن حبَّان (1006): «كان رسول الله ﷺ إذا رأى في السَّماء ريحًا استقبله من حيث كان، وإن كان في الصَّلاة تعوَّذ بالله من شرِّه».

فينبغي أن يكون الرَّسول ﷺ أُسْوَتَنَا وقدوتنا، وقد قال الله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١)** ﴾ [الأحزاب].

بل نحن أولى بأن نخاف عذاب الله، ونحذر غضبه وانتقامه بسبب ما فشا في مجتمعنا من الموبقات مثل: القول على الله بغير علم والشِّرك والبغي والإثم والفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ فالأمَّة إذا ظهرت فيها هذه الموبقات وعمَّت فهي إلى غضب الله وعقابه أقرب منها إلى رضاه ورحمته.

فالنَّبيُّ ﷺ كان إذا رأى غيمًا مقبلاً خشي أن يكون عذابًا وتضرَّع إلى الله بالدُّعاء؛ فإذا انجلى ولم يمطر حَمِدَ الله؛ لأنَّه لم يكن فيه عذابٌ، وإذا أمطر قال: «**اللَّهُمَّ صَيِّبًا نَافِعًا**».

وكان من هديه ﷺ أوَّل ما ينزل المطر أن يخرج يمشي تحته، قال أنس ﷺ: «أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطرٌ؛ فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتَّى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله! لِمَ صنعت هذا؟ قال: «**لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهْدٍ بِرَبِّهِ تَعَالَى**»[4].

فالسَّحاب الَّذي نراه قد يكون فيه الرَّحمة وقد يكون فيه العذاب، وكذلك المطر قد يكون نزوله رحمةً ونعمةً وهو النَّافع، وقد يكون نزوله عقوبةً ونقمةً وهو الضَّارُّ.

ولهذا ينبغي على المسلم إذا رأى سحابًا أن يستعيذ بالله من شرِّه، وإذا نزل المطر أن يسأل الله أن يكون نافعًا غيرَ ضارٍّ اقتداءً برسول الله ﷺ.

ومن الواجب على العبد كذلك في هذا المقام أن يُقِرَّ بأنَّ نعمةَ المطر من الله تعالى، وينسب الفضل إليه، فهو سبحانه مُولِي النِّعم ومُسْدِيها، بيَدِه الخيرُ، وهو على كلِّ شيء قدير.

وقد ثبت في «الصَّحيحين» وغيرهما عن زيد ابن خالد ﷺ قال: «صلَّى لنا رسول الله ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبية على إِثْرِ سماءٍ كانت من اللَّيلة[5]، فلمَّا انصرف أقبل على النَّاس، فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قالوا: **الله ورسوله أعلم! فقال: «قَالَ اللهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ**»[6].

(3) أخرجه أبو داود (5099)، وابن ماجه (3889)، والبخاري في «الأدب المفرد» (686)، وأحمد (190/6)، والنَّسائي في «الكبرى» (562/1) من طريق يزيد بن المقدام ابن شريح عن أبيه المقدام عن أبيه عن عائشة به، قال الألباني: «إسناده صحيح»: «الصحيحة» (2758).

(4) أخرجه مسلم (898).

(5) أي على إثر مطر.

(6) البخاري (846)، ومسلم (71).

فالقائل عند نزول المطر: مطرنا بفضل الله ورحمته، قد نسب النِّعمة لمعطيها، وأضاف المنَّة لموليها، واعتقد أنَّ نزول هذا الفضل والخير والرَّحمة إنَّما هو محض نعمة الله وآثار رحمته سبحانه.

وأمَّا القائل عند نزول المطر: مطرنا بنَوْء كذا وكذا؛ فلا يخلو من أحدِ أمرين:

إمَّا أن يعتقد أنَّ المنزل للمطر هو النَّجم، وهذا كفرٌ ظاهرٌ ناقلٌ عن الملَّة.

وإمَّا أن يعتقد أنَّ المنْزِل للمطر هو الله، والنَّوءُ سببٌ، فيضيف النِّعمة إلى ما يراه سببًا في نزولها، وهذا من كفر النِّعمة؛ لأنَّ الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر، ولو كانت سببًا؛ فإنَّ الأسباب لا تجعل مع الله شركاءَ وأندادًا وأعوانًا.

وكذلك الرِّيح؛ قد تكون نعمةً ورحمةً، وقد تكون عذابًا ونقمةً، وقد علَّمنا النَّبيُّ ﷺ ما نقول إذا هبَّت الرِّيح وخشينا أمرًا نكرهه، فقال: «**لاَ تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**»[7].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَخَذَتِ النَّاسَ ريحٌ في طريق مكَّة، وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه حاجٌّ، فاشتدَّت عليهم، فقال عمر رضي الله عنه لمن حوله: من يحدِّثنا عن الرِّيح؟ فلم يرجعوا له شيئًا، وبلغني الَّذي سَأَلَ عنه عمر رضي الله عنه من ذلك؛ فاستحثثت راحلتي حتَّى أدركته، فقلت له: يا أمير المؤمنين! أخبرت أنَّك سألتَ عن الرِّيح، وإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**الرِّيحُ مِنْ روحِ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالعَذَابِ؛ فلاَ تَسُبُّوهَا، وَاسْأَلُوا اللَّهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ مِنْ شَرِّهَا**»[8].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فهذه السُّنَّة في أسباب الخير والشَّرِّ: أن يفعل العبد عند أسباب الخير الظَّاهرة والأعمال الصَّالحة ما يجلبُ اللهُ به الخيرَ، وعند أسباب الشَّرِّ الظَّاهرة من العبادات ما يدفع الله به عنه الشَّرَّ.

فأمَّا ما يخفى من الأسباب؛ فليس العبد مأمورًا بأن يتكلَّف معرفته، بل إذا فعل ما أُمِرَ به وترك ما حظر؛ كفاه الله مؤنةَ الشَّرِّ ويسَّرَ له أسباب الخير: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق]»[9].

وصلَّى الله تعالى وسلَّم على نبيِّه محمَّدٍ وعلى آله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

---

(7) أخرجه التِّرمذي (2252) وقال: «حسن صحيح»، وأحمد (123/5)، والنَّسائي في «الكبرى» (10770)، والحاكم (298/2) عن أبي بن كعب رضي الله عنه، «الصحيحة» (2756).

(8) أخرجه أحمد (267/2)، والبيهقي (361/3) وغيرهما.

(9) «المجموع» (170/35).

فتاوى شرعية

أ. د. محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في تكفير عموم الذُّنوب وغفرانها بثواب الحجِّ أو العمرة

◆ **السُّؤال:**

أُرِيدُ تَجلية القول في تكفير الحج والعمرة للكبائر والصَّغائر، وذلك في عدَّة مسائل أضعها بين أيديكم في الفقرات التَّالية:

الفقرة الأولى: هل الحجُّ يكفِّر جميع الذُّنوب ـ الصَّغائر والكبائر ـ أم هو خاصٌّ بالصَّغائر فقط؟

الفقرة الثَّانية: هل العمرة تدخل في حكم الحجِّ من حيث الجزاء في تكفير الذُّنوب، ورجوع الحاجِّ كيوم ولدته أمُّه؟

الفقرة الثَّالثة: هل تكفير ذنوب الحاجِّ خاصَّة بحجَّة الإسلام أم تشمل كلَّ حجٍّ بما في ذلك حجّ النِّيابة؟

الفقرة الرَّابعة: وهل يعيد الحجَّ من ارتدَّ عن دينه ثمَّ تاب واستقام؟ فإن كان لا يعيد فهل تنفعه حسنات حجِّه أم أنَّ ارتداده يبطل كلَّ حسنات حجِّه وكذا أعماله الأخرى؟ وهل إذا بقي المرتدُّ على كفره ومات عليه، هل يعاقب على الكبائر والصَّغائر أم على الكبائر فقط؟ وهل حسنات حجِّه وأعماله تحسب من جملة السَّيِّئات؟ وإذا لم تكن للكافر حسنة فكيف توزن أعماله؟ أفيدونا جزاكم الله خير الجزاء.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على منْ أرْسلَه الله رحمةً للعالمينَ، وعلى آلهِ وصحبهِ وإخوانهِ إلى يومِ الدِّين، أمَّا بعدُ:

فالجواب على الفقرة الأولى على الوجه التَّالي:

لا خلافَ بينَ العلماءِ في أنَّ صغائرَ الذُّنوبِ تُكفَّر بعبادةِ الحجِّ ويحصلُ بها الغفرانُ[1]، غير أنَّ العلماءَ يختلفون في تكفيرِ كبائرِ الذُّنوبِ بالحجِّ، وما عليهِ أهلُ التَّحقيقِ أنَّ الحجَّ مكفِّرٌ للذُّنوبِ جميعًا صغيرِها وكبيرِها، لقولهِ ﷺ في فضلِ الحجِّ المبرورِ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[2]، فالحديث دلَّ ـ بظاهرهِ ـ على أنَّ من استوْفَى أحكامَ الحجِّ، ووقعتْ أعمالُه على وَفْقِ مطلبِ الشَّرعِ، ولم يُخالطه شيءٌ مِنَ الإثم والفُسوقِ؛ رجعَ نقيًّا من ذنوبهِ كيوم ولدتهُ أمُّه.

(1) انظر: «مرقاة المفاتيح» للملا القاري: (5/ 382).

(2) أخرجه البخاري (1521)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



ويؤكِّد هذا المعنى: حديثُ عمرو ابنِ العاص رضي الله عنه قالَ: فلمَّا جعَلَ اللّه الإسْلامَ في قلْبي أتيْتُ النَّبيَّ ﷺ، فقلْتُ: «ابْسُطْ يَمينَكَ فَلأُبَايِعْكَ»، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي، قَالَ: «**مَالَكَ يَا عَمْرُو؟!**»، قَالَ: قُلْتُ: «أَرَدتُّ أَنْ أَشْتَرِطَ»، قَالَ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟!**»، قُلْتُ: «أَنْ يُغْفَرَ لِي»، قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**»[3] والحديث «فيه عظم موقعِ الإسلامِ والهجرةِ والحجِّ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهَا يهدِمُ ما كانَ قبلهُ من المعاصِي»[4] منْ غيرِ تفريقٍ بينَ صغائرهَا وكبائرِهَا.

قال ابنُ حَجَرٍ رحمه الله في تعليقِهِ علَى حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه: «وظاهرُهُ غُفرانُ الصَّغائرِ والكبائرِ والتَّبعَاتِ»[5].

قُلْتُ: فإنَّ عُمومَ ظاهره غيرُ مقصودٍ مطلقًا، وإنَّما يتناولُ الصَّغائرَ والكبائرَ منْ حُقوقِ اللّه تعالى المتعلِّقةِ باجتنابِ رُكوبِ المحارمِ كالزِّنَا، والسَّرقةِ، وشربِ الخمرِ، والقذْفِ، والكذبِ، ونحو ذلكَ، أمَّا حُقوقُ اللّه الَّتي تشْغَلُ بها ذمَّةُ المكلَّفِ كالكفَّاراتِ، والنُّذورِ، وقضاءِ الصَّلاةِ، والصَّوْمِ، فإنَّها تبقَى قائمةً ولا تبرأُ ذمَّته منها، ولا تَسقطُ بحالٍ إلاَّ بعدَ القيامِ بها أداءً أو قضاءً على وَفْقِ المطلوبِ شَرْعًا، أوْ عندَ حَالةِ عدمِ القُدرةِ على امتثالِ الأمرِ بها أو العجزِ عنْ أدائِهَا.

ويُستثنى ـ أيضًا ـ منَ العمومِ السَّابقِ مَا يتعلَّقُ بحقوقِ العبادِ منَ التَّبعاتِ الجنائيَّةِ والماليَّةِ وغيرِهما، فإنَّ الحجَّ لا يُكفِّرها، وإنَّما يتوقَّفُ الإبراءُ منها على إرضاءِ أصحابها بالتَّسديدِ، أوِ التَّنازُلِ، أوِ العفْوِ، سواءٌ حصلَ في الدُّنيَا، أوْ في الآخرةِ على ما صحَّ في حديث «المفلِسِ» الَّذي رواهُ أبو هُريرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟**» قَالُوا: «**المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ**»، فَقَالَ: «**إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[6]، قال ابنُ تيميةَ رحمه الله في معرضِ بيانِ حديثِ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنه: «فعُلم أنَّه عنَى بذلكَ أنَّه يهدمُ الآثامَ والذُّنوبَ التي سَأَلَ عَمْرٌو مغفرتها، ولم يَجْرِ للحُدودِ ذِكْرٌ، وهيَ لا تسقطُ بهذه الأشياءِ بالاتِّفاقِ»[7].

وقال الملاَّ القاري: «وأمَّا حقوقُ العبادِ فلا تسقُطُ بالحجِّ والهجرةِ إجماعًا»[8]، وقال أبو الحسن المباركفوري في شرحه لحديث عمرو ابن العاص رضي الله عنه: «تهدم ما مان قبلها»: أيْ: منَ

(3) أخرجه مسلم (121)، وابن خزيمة في «صحيحه» (1/66).

(4) «شرح مسلم» للنَّووي (2/138).

(5) «فتح الباري» لابن حجر (3/383).

(6) أخرجه مسلم (2581).

(7) «الصَّارم المسلول» لابن تيمية (464).

(8) «مرقاة المفاتيح» للملا القاري (1/190).

الخطايَا المتعلِّقَةِ بحقِّ اللهِ لا التَّبعاتِ، وتُكفِّر الكبائرُ الَّتي بين العبدِ ومولاهُ، لا المظالِمُ بين العبادِ، وحُقوق الآدميِّينَ، و«أنَّ الحجَّ» أي المبرور «يهدم ما كان قبله» الحكم فيه كالَّذي قبله، قيلَ: وعليْه الإجماعُ، وإنَّما حملُوا الحديثَ في الحجِّ والهجرةِ على ما عدَا حقوقَ العبادِ والمظالمِ لما عرفُوا ذلكَ منْ أُصولِ الدِّينِ، فردُّوا المجمَلَ إلى المفصَّلِ، وعليهِ اتِّفاقُ الشَّارحينَ»[9].

قُلْتُ: والحديثُ ـ أيضًا ـ إنَّما يتناوَلُ كلَّ ما يدخلُ تحتَ المشيئةِ، ويُستثنى الشِّركُ؛ لأنَّه لا تَنفعُ الأعمالُ الصَّالحةُ معَ وجودِهِ والتَّلبُّسِ بهِ، لقولِهِ تَعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ**﴾ [النساء: 48] وسيأتي المزيدُ في بيانِهِ.

هذَا؛ وقدْ ذهبَ جمهورُ العلماءِ إلى اختصاصِ المكفِّراتِ بالصَّغائرِ من الذُّنوبِ دُون الكبائرِ، وبه قالَ ابنُ عبدِ البرِّ[10]، وابنُ العربي[11]، والنَّووي، وقالَ: «قال القاضي عياض: هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ وأنَّ الكبائرَ إنَّما تكفِّرها التَّوبةُ أو رحمةُ اللهِ تعالى وفضلُه»[12].

ونقلَ الملاَّ القاري في مَعرضِ شرحِهِ لحديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه مرفوعًا: «**رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» الإجماعَ على ذلكَ، فقالَ: «اعلمْ أنَّ ظاهرَ الحديثِ يُفيدُ غُفرانَ الصَّغائرِ والكبائرِ السَّابقةِ، لكنِ الإجماعُ أنَّ المكفِّراتِ مختصَّةٌ بالصَّغائرِ منَ السَّيِّئاتِ التي لا تكونُ متعلِّقةً بحقوقِ العبادِ من التَّبعاتِ؛ فإنَّه يتوقَّفُ على إرضائِهِمْ، معَ أنَّ مَا عدَا الشِّركَ تحتَ المشيئةِ»[13].

قلت: ودعوَى الإجماعِ تحتاجُ إلى إثباتٍ وهو متعذِّرٌ، والحاملُ على تخصيصِهِ بالصَّغائرِ دونَ الكبائرِ هو قولُه ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ ما اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**»[14][15]، ويمكنُ دفعُ التَّعارضِ بحملِ مقتضَى قولِه: «**ما اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ**» علَى معنى أنَّه لا اجتنابَ للكبائرِ إلاَّ بفعلِ الفرائضِ منَ الصَّلواتِ والجمعةِ ورمضانَ، فمَن لم يفعْلها لم يكنْ مُجْتنبًا للكبائرِ؛ لأنَّ تَرْكَها منَ الكبائرِ، فوقفَ تكفيرُ الذُّنوبِ صغيرِها وكبيرِها علَى فعلها[16]، كمَا توقَّفَ تكفيرُ الذُّنوبِ في الحجِّ

(9) «مرعاة المفاتيح» للمباركفوري (1/ 98).

(10) «التَّمهيد» لابن عبد البرِّ (4/ 48).

(11) «المسالك» لابن العربي (4/ 343).

(12) «شرح مسلم» للنَّووي (3/ 112).

(13) «مرقاة المفاتيح» للملا القاري (5/ 382).

(14) أخرجه مسلم (233)، وأحمد (2/ 400)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(15) انظر: «المسالك» لابن العربي (4/ 343).

(16) أثار بعضهم إشكالاً في الجمع بين الآية والحديث من ناحية أنَّ الصَّغائر تكفَّر باجتناب الكبائر بنصِّ قوله تعالى: ﴿**إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ**﴾ [النساء: 31]، فإذا حصل ذلك بالاجتناب فما الَّذي تكفِّره الصَّلوات الخمس ونحوها؟
وقد أجيب: بأنَّ مراد الله في الآية السَّابقة الاجتناب الكلِّي طول العمر من وقت الإيمان والتَّكليف إلى الموت، =

على تركِ الرَّفَثِ والفُسوقِ.

والجواب على الفقرة الثَّانية:

فإنَّ من أدَّى العمرةَ مخلصًا لله تعالى يُريدُ وجهَه الكريمَ على الوجْهِ المَرْضِيِّ شرعًا، خاليًا من الرَّفثِ والفُسوقِ، فإنَّه ينالُ بها جَزاءَ الحجِّ من غُفرانِ الذُّنوبِ، وحطِّ الخطايَا، ونفيِ الفقرِ، وجزاءِ الجنَّةِ، وقدْ صحَّ في النُّصوصِ الحديثيَّةِ ما يُفيدُ عمومَ حُصولِ الجزاءِ للحجِّ والعمرةِ في قوله ﷺ: «**مَنْ أَتَى هَذَا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[17]، وهو يشملُ الحجَّ والعُمرة، وقد أخرجه الدَّارقطني بلفظِ: «**مَنْ حَجَّ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ يَرْجِعُ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[18]، والحديث وإن ضعَّف الحافظُ ابنُ حجرٍ رحمه الله إسنادَه[19] فقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «**العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةُ**»[20]، وقال ـ أيضًا ـ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الجَنَّةُ**»[21].

وفي معرضِ الإشادةِ بخصائصِ البلدِ الحرامِ، قال ابنُ القيِّمِ رحمه الله: «وجعلَ قصدَه مكفِّرًا لِمَا سلَفَ من الذُّنوبِ، ماحيًا للأوزارِ، حاطًّا للخطايَا»، واستدلَّ له بالأحاديثِ السَّالفةِ البيانِ، ثمَّ قال: «فلو لم يكنِ البلدُ الأمينُ خيرَ بلادِهِ وأحبَّها إليهِ، ومختارَه منْ البلادِ؛ لَما جعلَ عَرصاتها مناسكَ لعبادِهِ، فَرَضَ عليهم قصْدَهَا، وجعلَ ذلكَ مِنْ آكدِ فروضِ الإسلامِ، وأَقْسمَ بهِ في كتابهِ العزيزِ في موضعينِ منْهُ، فقالَ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين]، وقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد] وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كلِّ قادر السَّعي إليها، والطَّواف بالبيت الَّذي فيه غيرها، وليسَ عَلَى وجْهِ الأرضِ موضعٌ يُشْرع تقبيلُهُ واستلامُه، وتُحطُّ الأوْزارُ والخطايَا فيهِ غير الحجَرِ الأسودِ والرُّكنِ اليماني، وثبتَ عَن النَّبيِّ ﷺ أنَّ الصَّلاةَ في المسجدِ الحرامِ بمائةِ ألفِ صلاةٍ..»[22].

أمَّا الجوابُ على الفقرةِ الثَّالثةِ:

فإنَّ نصوصَ الشَّرعِ العامَّةِ تقضي بانتفاءِ التَّفريقِ ـ مِنْ حيثُ هَدْمُ الذُّنوبِ والآثامِ، وحصولُ

= وأنَّ الحديث عنى بالاجتناب الجزئيَّ، فالتَّكفير بينهما للذُّنوب إنَّما يقع إذا ما اجتنبت في ذلك اليوم. [انظر: «فتح الباري» لابن حجر (12/2)].

(17) أخرجه مسلم (1350)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(18) أخرجه الدَّارقطني في «سننه» (213)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(19) «فتح الباري» لابن حجر (382/3).

(20) أخرجه البخاري (1773)، ومسلم (1349)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(21) أخرجه التِّرمذي (810)، والنَّسائي (2631)، وأحمد (387/1)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

والحديث صحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ«مسند أحمد» (244/5)، وحسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (197/3).

(22) «زاد المعاد» لابن القيِّم (47/1).

الأجرِ والثَّوابِ - بينَ حجَّةِ الإسلامِ وحجَّةِ التَّطوُّعِ، كما لم تميِّزْ بينَ حجَّةِ المرْءِ عن نفسهِ أصالةً أو بالنِّيابةِ عنْ غيرِه، فإنَّها أعمالٌ معدودةٌ من الصَّالحاتِ، وفعلُها من الخيراتِ، والسَّيِّئاتُ تُغفرُ بها مطلقًا إلاَّ مَا أُوردَ من استثناءٍ، غيرَ أنَّ الذَّنبَ العظيمَ قدْ يحتاجُ إلى حسنةٍ عظيمةٍ لتكفيرهَا، وذلكَ لعمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ۝﴾ [طه].

وألفاظُ الحديثِ كقولِه ﷺ: «**العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ**» أوْ «**تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ**»، وألفاظُ الأحاديثِ الأخرى «**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ**» تؤكِّد أنَّ هدْمَ الذُّنوبِ ليس قاصرًا علَى حجَّةِ الإسلامِ ولا على تأديتِها بالأصالةِ، بل فضْلُ اللهِ ورحمتُه أوسعُ منْ هذَا وأشملُ.

أمَّا الجوابُ على الفقرةِ الرَّابعةِ:

فإنَّ العلماءَ يختلفونَ فيمن أدَّى حجَّةَ الإسلامِ قبلَ ردَّتِه؛ فهل تبطُلُ ويلزمُه قضاءٌ بعدَ توبتِهِ أمْ لا؟

فعلَى أصحِّ قولي العلماءِ أنَّ حجَّهُ صحيحٌ ولا يلزمُه القضاءُ بعدَ توبتِه، وهُو مذْهَبُ الشَّافعيةِ[23] والحنابلةِ[24] خلافًا لمنْ يرَى أنَّ حجَّه باطلٌ وتلزمُه الإعادةُ بعدَ توبتِه، وهُو مذهبُ الحنفيَّةِ[25] والمالكيَّةِ[26]، وسببُ اختلافهم يرْجعُ إلى أثرِ الرِّدَّةِ في فسادِ العملِ، فإنَّ الحنفيَّةَ والمالكيَّةَ يروْنَ أنَّ مجرَّدَ الرِّدَّةِ يُوجبُ إحباطَ العملِ وفسادَه، ويحتجُّونَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: 5]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [الأنعام]، والحبوطُ هُو الفسادُ، ومعنى هذا أنَّ عملَه يبطُلُ بالردَّةِ وتلزمُه الإعادةُ إن تابَ.

أمَّا علَى وَفْقِ المذهبِ الرَّاجحِ، فإنَّ الوفاةَ على الرِّدَّةِ شرطٌ في حُبوطِ العملِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝﴾ [البقرة]، فإنْ تَابَ ورجعَ إلى الإسلامِ فلا إعادةَ عليهِ، ويصِحُّ عملُه السَّابقُ مجرَّدًا عن الثَّوابِ حملاً للمطلقِ على المقيَّدِ.

وينبغِي أنْ يُعلم أنَّ دُخولَ الكافرِ في الإسلامِ الَّذي امتنَّ اللهُ به على عبادهِ المسلمين يَهدِم كلَّ سيِّئةٍ قبلَه؛ لقولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، ولحديثِ عمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنه المتقدِّمِ

---

(23) انظر «الحاوي» للماوردي (4/247)، و«المجموع» للنووي (3/5).

(24) انظر: «شرح العمدة» لابن تيمية (1/37).

(25) انظر: «المبسوط» للسَّرخسي (2/175).

(26) انظر: «أضواء البيان» للشَّنقيطي (1/329، 3/362).

وفيهِ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ**»، وإنْ بقيَ على كفرهِ فإنَّه يُؤاخَذُ بأَسْوَإِ أعمالِه؛ لقوله تعالى: ﴿**فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٧**﴾ [فصلت: 27].

ويُفْسِدُ كُفْرُهُ كلَّ حسنةٍ ويُبطلُها، ولا تُغني عنه أعمالُه الخيِّرةُ شيئًا يومَ القيامةِ؛ لقولهِ تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣**﴾ [الفرقان]، ولقولِه تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩**﴾ [النور] ويُجزَى الكافرُ بعمله الصَّالحِ في الدُّنيا لقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بها في الدُّنْيَا وَيُجْزَى بها في الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بها للهِ في الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إلى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بها**»[27].

والكافرُ يتفاوتُ عذابُه بحسَبِ كِبَرِ السَّيِّئةِ وعددِها، وليس بالنَّظرِ إلى الحسنةِ؛ لأنَّها لا تُحْسَبُ عليه من جملةِ السَّيِّئاتِ.

وفي وزنِ أعمالِ الكفَّارِ خلافٌ مَبْنيٌّ على مسألةِ مخاطبةِ الكفَّارِ بفروعِ الشَّريعةِ، والرَّاجِحُ أنَّهم يُحاسبونَ حسابَ تقريرٍ؛ لأنَّه ليسَ لهم حسنات، فيُوقَفُون على أعمالهم وسيِّئاتهم، يُقَرَّرُونَ بها، قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦**﴾ [ص]، إذِ الكافِرُ لا تنفعُهُ حسناتُه، وإنْ وُزِنَتْ؛ فإنَّما تُوزَن قطعًا للحُجَّةِ، إلاَّ إذَا تابَ الكافرُ قبلَ موتِهِ وأَسْلَم للّه تعالى؛ فإنَّهُ تنفعُهُ حسناتُه قبل الإسلامِ وبعدَهُ ـ فضلاً من الله ورحمةً ـ قال تعالى: ﴿**إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠**﴾ [الفرقان]، وفي حديثِ حكيمِ بنِ حزامٍ ﵁ سألَ النَّبيَّ ﷺ فقَالَ: «أَيْ رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بها في الجاهِلِيَّةِ مِنْ صَدَقَةٍ أَوْ عَتَاقَةٍ أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ أَفِيهَا أَجْرٌ؟» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**»[28].

هذَا؛ وحقيقٌ بالتَّنبيهِ أنَّ المسلمَ لا ينبغي عليهِ أنْ يتهاونَ في فعلِ الصَّغائرِ والاستمرارِ عليهَا، بلْهَ الكبائرُ اتِّكالاً على ثوابِ الحجِّ أو العمرةِ أو أيِّ عملٍ صالحٍ لخطورةِ ارتكابِ الصَّغائرِ والإصرارِ عليها، ويدلُّ عليه حديثُ سهلِ بنِ سعدٍ ﵁ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى حَمَلُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ**»[29]، وحديثُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﵄ أنَّ

(27) أخرجه مسلم (2808)، من حديث أنس بن مالك ﵁.

(28) أخرجه البخاري (1436)، ومسلم (123).

(29) أخرجه أحمد (331/5)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (165/6)، من حديث سهل بن سعد ﵁. والحديث صحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (744/1).

النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ القَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الذينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**»(30)، وحديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**إِنَّ المؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قلبُه، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يعلو قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾** [المطففين]»(31).

والمعلومُ أنَّ ظاهرَ الحسناتِ لا تُغْني عنْ حقيقةِ التَّوبةِ والاستغفارِ، وتوهُّمُ ذلك يُؤدِّي بطريقٍ أو بآخرَ إلى فسادٍ من جهةِ العملِ والمعتقَدِ، حيثُ يجعلُ التوهم المصرَّ مستخفًا بذنوبِهِ ومستصغرًا لها، فيُزكِّي نفسَه بالاتِّكالِ على حسناتِهِ، ويأْمنُ مكرَ اللَّه بالإصرارِ على ذنبِهِ، الأمرُ الَّذي يجرُّه إلى إسقاطِ فرضِ التَّوبةِ والاستغفارِ عن نفسِهِ، وذلكَ معدودٌ من أعظمِ الكبائرِ، وهو من الخطورةِ بمكانٍ بتركِهِ لتقوَى اللَّه تعالى، ولا يخفَى أنَّ منَ الصِّفاتِ اللاَّزمةِ للمتَّقِين أنْ لا يُصرُّوا على ذنْبهم، وأنْ يتوبوا ويستغفِرُوا، وهو ظاهرٌ من نصوصِ الشَّريعةِ، قال تعالى: **﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝١٣٦﴾** [آل عمران].

والعِلمُ عندَ اللَّه تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، وصلَّى اللَّه وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانِهِ إلى يومِ الدِّين تسليمًا.

---

(30) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (1/ 138)، وأحمد: (2/165)، من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، والحديث صحَّحه أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد»: (10/52)، الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (1/870).

(31) أخرجه التِّرمذي (3334)، وابن ماجه (4244)، وأحمد: (2/ 297)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (1670).



كتب بأعمار بني آدم

الزواوي ملياني
وهران

لقد جعلت موسوعيَّة علماء الإسلام كثيرًا من النَّاس - عربًا وأعاجم - يُعجبون وهم يرون علماء يكتبون في أصول الدِّين وفي أصول الفقه والفقه واللُّغة والحديث، بل في الفروسيَّة والطِّبِّ وغيرها من العلوم..

كتابات عالية المقام جدًّا، رفيعة الرُّتبة جدًّا جدًّا، فالعالم منهم لم يكن مثقَّفًا يحمل نُتَفًا من العلم أو نُبَذًا من الفكر، ولكنَّه كان عالِمًا بكلِّ ما تحمله معنى «العالِميَّة» من معاني الرُّسوخ والامتلاء، عالي الكعب فيها، مملوء القدح منها، بالمقام الَّذي تحسبه إن هو تكلَّم في فنٍّ أو ناقش في علم لا يحسن غيره.

وهكذا هو العلم غرسٌ عميق الجذر، يانع الثَّمر، تطيب نفسك حين ترى؛ ممَّا شئت منه أن ترى ألوانًا وأصنافًا من عناقيد الأفكار وجنى الأنظار ممَّا علا منه وما تدلَّى.

وكان ممَّا جال في ذهني يومًا، الهِمَّةُ الَّتي كان عليها السَّلف رحمهم الله في العلم - جملةً - تعلُّمًا وتعليمًا وتأليفًا؛ لكنَّ شيئًا مرَّ بي وأنا أفتِّش في بطون كتبٍ حول حلية الطَّلب تكرَّرت منِّي القراءة لمعناه؛ لكن في أخبار مختلفة المضمون؛ فيها أنَّ العالم الفلاني ألَّف كتابه الفلاني في كذا من السِّنين وآخر جمع مؤلَّفًا في كذا من الأعوام، وإذ أنا على هذه الحال؛ إذ ومضت في ذهني إشعاعة أنارت شيئًا ممَّا قد ارتسم في ذهني له عُلقَة بموضوعنا تقادم الدَّهر به؛ فألقى عليه من غشاوة النِّسيان ما جعلني أذهل عنه.

ثمَّ رحت أقلِّب الأوراق، أجمع من هاهنا وهاهنا - بعضًا - من تلك الأخبار العِجاب؛ الَّتي تحكي همَّةَ أقوامٍ وصبرَهم وإخلاصَهم بما لا تدانيهم في أيٍّ من ذلك أمَّةٌ من الأمم.

لقد هالني أنَّ السَّلف رحمهم الله كانوا يراعون كتبهم كما يراعون أولادهم، وترى الواحد منهم يتعاهد كتابه بالتَّصحيح والتَّصويب مرَّة بعد مرَّة، وهو لا يلبث في كلِّ مرَّة يستبين مواطن الخلل فيه ليحذفها منه؛ بل إنَّ بعضهم قضى عمره ولم يتمَّ كتابه.

ثمَّ نظرت من حولي؛ فإذا بي أرى أنَّ الله تعالى قد أحيانا حتَّى عشنا لنبصر بعينٍ من حديدٍ ما نبَّأناه

رسولُ الله ﷺ من فشوِّ القلم؛ ولك أن ترى إلى السَّيل الَّذي تدفعه المطابع من الكتب وما ينفق من الأموال لذلك الغرض؟! كم جعل الكلمة هزيلة والكتب من المعاني نحيلة، والقراءة مملَّة؛ لأنَّك تجد الكتاب حين تجده وهو عريض الخاصرتين، فإن ولجته ولجت دارًا مقفرة، وقرأت سطورًا هي للمعاني مقبرة، كلماتٌ هكذا مُدَهْوَرة وعباراتٌ متخمة بالثَّرثرة.

لقد عاش علماء الإسلام مع الكلمة حتَّى أدخلتهم القبر، ولو قُدِّر لهم أن يَهُبُّوا من قبورهم خلقًا سويًّا من جديد، لعادوا إلى الكلمة من جديد، غير أنَّ ما كانوا عليه من الدِّين والهدى والعقل والحكمة جعلهم يحرصون على أن تكون كلمتهم - بكلِّ صورها - لله وحده، و هذا الَّذي جعلهم يتأنَّون فيما يقولون وفيما يكتبون؛ لتأخذ منهم بعض تآليفهم جزءً كبيرًا من أعمارهم، بل أخذت من بعضهم كلَّ أعمارهم.

ولكي تقع أخي القارئ على شيء من ذلك؛ انتخبت لك ثلَّة منهم لترى رأي العين كلَّ ما أطلتُ في الحكاية لك عنه.

◆ «الموطَّأ» للإمام مالك:

أمَّا مالك رحمه الله فأشهرُ من نار على علَم، كان عالمَ المدينة النَّبويَّة وفقيهَها ومحدِّثَها، ظهر نبوغه وهو لا يزال صغيرًا، ورزقه الله تعالى قلبًا واعيًا وحافظة قويَّة، وذهنًا وقَّادًا، ولم يزل صابرًا على طلب العلم - والحديث خصوصًا - حتَّى صار من أعلم أهل الزَّمان به.

قال الثَّوري رحمه الله: «لم يبق على وجه الأرض آمن على حديث رسول الله من مالك».

وقال أيضًا: «ما أُقدِّم على وجه الأرض في صحَّة الحديث على مالك أحدًا».

وكان الشَّافعي يقول: «إذا ذُكر العلماء؛ فمالكٌ النَّجم».

لقد كان مالك عالِمًا صاحب أثر، كثيرًا ما يتمثَّل بقول الشَّاعر:

وخير أمور الدِّين ما كان سُنَّة

و شرُّ الأمور المحدثات البدائع

ومن دُرَره رحمه الله قوله: «قبض رسول الله ﷺ وقد تمَّ هذا الأمر واستكمل، فينبغي أن تتَّبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يتَّبع الرَّأي، فإنَّه من اتَّبع الرَّأي جاءه رجل أقوى منه في الرَّأي فاتَّبعه، فكلَّما غلبه رجلٌ اتَّبعه، أرى أنَّ هذا بعد لم يتمّ...»[1].

قال ابن العربي عن الموطأ: «هو الأصل الأوَّل واللُّباب، وكتاب البخاري هو الأصل الثَّاني في هذا الباب، وعليه بنى الجميع كمسلم والتِّرمذي»[2].

لكن كم من الزَّمن قضى مالك في تأليفه؟

قال أبو زهرة: «ويظهر أنَّ مالكًا أخذ وقتًا طويلاً في تدوينه وتمحيصه حتَّى استطاع أن ينشره على النَّاس، فإنَّ طلب أبي جعفر تدوينه كان حوالي سنة (148هـ)، ونشره على النَّاس كان حوالي (159 هـ)، أي أنَّ الفترة بين الطَّلب والنَّشر كانت نحو إحدى عشرة سنة قضاها مالك في جمعه وتمحيصه، و لقد قالوا: إنَّه استمرَّ يمحِّص فيه إلى

(1) «الموطَّأ برواياته الثَّمانية» (1/98).

(2) المرجع نفسه.

أن مات...»[3].

قلت: وقيل قضى فيه الإمام رحمه الله أربعين سنة كاملة، والله أعلم.

◆ «المسند» لأحمد بن حنبل:

الإمام أحمدُ رحمه الله هو مُسنِدُ الدُّنيا بأسرها، وكتابُه «المسنَد» هو مسنَدُها مطلقًا، وكلُّ من كتب عنه رحمه الله يذكر عنه كراهته الكتابةَ، والسَّببُ أنَّه كان إمامًا أثريًّا ليس يهوى غيرَ الحديث، فكان يكره أن يكتب شيئًا سواه، حتَّى إنَّه كره، بل و منع أن تُكتب فتاواه، وكان يكره أن يَحشُر من يُصنِّف في الحديث آثارَ النَّاس مع كلام رسول الله ﷺ؛ لأجل هذا كلِّه اتَّجهت همَّتُه إلى أن يصنِّف للنَّاس كتابًا من أحاديث النَّبيِّ ﷺ يكون لهم إمامًا إذا اختلفوا في شيء من أحكام الدِّين.

ولكنَّ كتابًا بهذا الحجم وبهذه الأهميَّة كان سيأخذ من الإمام رحمه الله قريبًا ممَّا أخذته منه الأيَّام واللَّيالي من العمر.

فقد جاء في كتاب «المنهج الأحمد»: «كان ابتداؤه فيه سنة (180هـ)».

وقال شمس الدِّين الجزري ما نصُّه: «إنَّ الإمام أحمد شرع في جمع «المسند» فكتبه في أوراق منفردة وفرَّقه في أجزاء منفردة على نحو ما تكون المسوَّدة، ثمَّ جاء حلول المنيَّة قبل حصول الأمنيَّة، فبادر بإسماعه لأولاده وأهل بيته، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله...»[4].

◆ «صحيح البخاري»:

البخاريُّ هو الإمام الحجَّة العلَم النَّاقد المجتهد شيخ الإسلام؛ طلب العلم وهو ابن عشر سنين، وأصلح خطأً في الإسناد للدَّاخلي وهو ابن إحدى عشرة فأقرَّ له بذلك، ولَمَّا بلغ الثَّالثة عشرة كان قد حفظ كتب ابن المبارك وكتب وكيع.

ألَّف البخاري كتبًا جمَّة ولكن ليس يُعلم في التَّاريخ كتابٌ بعد كتاب الله تعالى؛ لقي من الاهتمام شرحًا وتدريسًا ما لقيه كتابه «الصَّحيح» رحمه الله، كيف وقد أربت شروحه على المائة شرح.

أمَّا عن المدَّة الَّتي قضاها في جمعه وتنسيقه وتبويبه وترتيبه؛ فقد قال بلسانه رحمه الله: «صنَّفت الصَّحيح في ستِّ عشرة سنة وجعلته حجَّة فيما بيني وبين الله»[5].

ولَمَّا ذكر الذَّهبيُّ «الصَّحيح» قال: «جزاه الله عن الإسلام خيرًا، نِعم ما ادَّخره لمعاده»[6].

◆ «صحيح مسلم»:

كان مسلمٌ رحمه الله من كبار علماء زمانه؛ لكنَّه لم يكن أعلى أهلِ طبقته علمًا، بل كان فيهم من لا يدانيه مسلمٌ بكثير؛ ويكفي في ذلك - مثالاً - شيخه البخاري رحمه الله، لكن الَّذي جعل صيتَ مسلمٍ

(3) «مالك؛ حياته و عصره...» (ص228).

(4) «أحمد بن حنبل» لأبي زهرة (ص183 - 184).

(5) «السِّير» (405/12).

(6) «جزء فيه ترجمة البخاري»، انظر: «مقدِّمة هدي السَّاري» (ص39/ ت: الفريابي.

يعلو على بعض الكبار من أهل طبقته؛ صناعتُه لذلك الكتاب الفذّ «المسند الجامع الصَّحيح»؛ ويجهل كثير من النَّاس أن ذلك الصِّيت لم يكن له أن يكون لولا السِّنون الطِّوال الَّتي قضاها رحمه الله في تأليفه.

قال الشَّيخ مشهور حسن: «صنَّف مسلم كتابه الصَّحيح... على ما قاله أحمد بن سلمة [في] خمس عشرة سنة، ونقل عنه بعضهم أنَّه اثنتا عشرة سنة، وهو تصحيف أو خطأ مطبعيٌّ، وقال النَّووي: بقي في تهذيبه وانتقائه ستَّ عشرة سنة، وهو الزَّمن الَّذي استغرقه البخاري في تأليف صحيحه».

قلت: وذكر أنَّه بدأ في تأليفه وهو في التَّاسعة والعشرين من عمره[7].

وقال الأستاذ محمود فاخوري: «ونقول إنَّه لبث في تأليفه خمس عشرة سنة وليس ذلك بمستغرب»[8].

◆ «فتح الباري شرح صحيح البخاري»:

أتحف اللّهُ الزَّمانَ في قرنه التَّاسع الهجريِّ برجلٍ فذٍّ من أعظم النَّاس علمًا وفهمًا، و قد آتاه اللّه تعالى المُكنة في علوم الشَّريعة حتَّى ذلَّت ناصيتُها إليه، ورزقه اللّه قبولاً يكاد يكون عديم النَّظير بين أهل طبقته، فتوافد النَّاس عليه، وكثُر الزِّحام في مجالسه، حتَّى قيل: إنَّ أعيان العلماء من كلِّ مذهب كانوا من تلامذته، وصارت كلمةُ الحافظ في زمنه وبعد زمنه بكثير؛ إذا أطلقت انصرفت الأذهان إلى شخص الحافظ ابن حجر رحمه الله.

لقد بارك اللّه للحافظ في تآليفه حتَّى كثرت وانتشرت وطلبها العلماء والأمراء، لكن لا كتاب منها حظي بمثل ما حظي به «الفتح» الَّذي كان حقًّا فتحًا من اللّه لا على الحافظ وحده، بل على هذه الأمَّة بأسرها، أدَّى به الحافظ عنها الدَّين الَّذي كان في ذمَّتها حول شرح «صحيح البخاري».

جاء في كتاب «الجواهر والدُّرر»؛ للسَّخاوي رحمه الله: «كان الابتداء فيه في أوائل سنة (817) على طريق الإملاء، ثمَّ صار يكتب من خطِّه مداولةً بين الطَّلبة شيئًا فشيئًا، والاجتماع في يوم من الأسبوع للمقابلة والمباحثة، وذلك بقراءة شيخنا العلامة ابن خضر... إلى أن انتهى في أوائل يوم من رجب سنة (842) سوى ما ألحق فيه بعد ذلك، فلم ينته إلاَّ قبيل وفاة المؤلف بيسير»[9].

قلت: فيكون عمر الكتاب - إذن - خمسةً وعشرين عامًا كاملة.

◆ «عمدة القاري شرح البخاري» للعيني:

العينيُّ رحمه الله محدِّث حنفيٌّ على قلَّة المحدِّثين في مذهب الحنفيَّة الَّذين كان له شأن في هذا الفنِّ، لا يُذكَر به في مثل بروزه فيه إلاَّ الزَّيلعيُّ صاحبُ «نصب الرَّاية»، على أيِّ حال فقد وفَّق اللّه العينيَّ أن تكون له مشاركةٌ هامَّةٌ في شرح أصحِّ الكتب بعد كتاب اللّه تعالى ألا وهو «صحيح البخاري» رحمه الله،

(7) «الإمام مسلم بن الحجاج» (ص155) لمشهور بن حسن سلمان.

(8) «الإمام مسلم بن الحجَّاج حياته وصحيحه» (ص62).

(9) كتاب «الجواهر والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسَّخاوي/ تحقيق إبراهيم باجس (2/ 675).

ولأنَّ المسألة لم تكن بتلك اليسيرة؛ فإنَّ الأمر كان طويلاً، جعل العينيَّ ينفق من عمره قرابة ثلاثة عقود كاملة.

قال صاحب كتاب «البدر العيني...»: «هو أجلُّ كتب العينيِّ وأشهرها، بل هو من أجلِّ شروح «صحيح البخاري»، كان ابتداؤه فيه في رجب آخر سنة (820هـ)، وفرغ منه في 5 جمادى الأولى سنة (847هـ) كما ذكر في آخر الكتاب»[10].

قلت: فيكون عمر الكتاب ما يقارب سبعًا وعشرين سنةً كاملة.

◆ «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي:

ليس يشكُّ أحدٌ أنَّ كتاب «السِّير» من الموسوعات الضَّخمة في بابه، هذا وهو مختصرٌ فكيف بأصله الأكبر «تاريخ الإسلام» له أيضًا؟!

جمع الذَّهبي رحمه الله في «السِّير» حوادث قرابة سبعمائة عامٍ على امتداد ما مرَّت به من أخبارٍ وأحوالٍ لأناسٍ تعاقبوا أجيالاً بعد أجيال، ترجم لأمَّة من النَّاس بلغ تعدادهم ستَّة آلاف وزيادة، ولغزارة المادَّة العلميَّة في الكتاب بسبب تفنُّن صاحبها وموسوعيَّته صار الكتاب كالنَّهر الجاري يقتبس منه الباحثون موادَّ مختلفةً لأنواع من البحوث يفردونها منه؛ فهذا في العقائد وهذا في الآداب وهكذا...

ومن جميل ما طرَّز به الذَّهبيُّ كتابَه؛ تلك التَّعليقات الرَّائعة والتَّنبيهات الرَّائقة على ما كان يسرده من الحوادث يُرَبِّي من خلالها القارئ بنصائح ذهبيَّة قلَّ أن تجد مثلها في كتاب تاريخ، ويا ليت ويا حبَّذا لو نسج على منواله من كتب مثل كتابته ولكن... عودٌ إلى المقصود: ما عمر هذا الكتاب الفذّ؟

قال الأستاذ مجد أحمد سعيد مكّي في مقدِّمة كتابه: «...حقَّقت تاريخ تأليفه للكتاب حيث ابتدأ به سنة (732 هـ) واستمرَّ في «تهذيبه» إلى سنة (744 هـ)»[11].

قلت: فيكون عمر الكتاب اثني عشرة سنة.

◆ «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي:

كلُّ من يعرف الخطيبَ عن قرب يعرف أنَّه رجل نبت في الحديث، وفي حِلَقِ المحدِّثين نشأ وترعرع، فلقد بدأ السَّماع وهو في سنِّ الحادية عشرة، وهذا ممَّا أعانه على أن يكون له شيوخ كُثر إضافة إلى الرِّحلة الَّتي قام بها في سبيل ذلك، ومن مهمَّات ما حصل له في رحلاته؛ لقاؤه بأبي نعيم الأصبهاني صاحب «الحلية»، وكتب له وصيَّةً إليه؛ شيخُه أبو بكر البُرقاني قال فيها: «وقد نفذ إلى ما عندك عمدًا متعمِّدًا أخونا أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت ـ أيَّده الله وسلَّمه ـ ليقتبس من علومك، ويستفيد من حديثك وهو بحمد الله ممَّن له في هذا الشَّأن سابقة حسنة وقدم ثابت وفهم به حسن، وقد رحل فيه وفي طلبه، وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من أمثاله الطَّالبين له، وسيظهر لك منه عند

(10) انظر: «بدر الدِّين العيني وأثره في علم الحديث» (ص210).

(11) «أقوال الحافظ الذَّهبي النَّقديَّة...».

الاجتماع من ذلك، مع التَّورُّع والتَّحفُّظ وصحَّة التَّحصيل ما يحسن لديك موقعه ويجعل عندك منزلة...»[12].

كان الخطيب رحمه الله واسع العلم والمعرفة جدًّا مما جعله أحد أكثر أهل العلم تأليفاً؛ لكنَّ أضخم كتاب ذاع خبره كان كتابَ «تاريخ مدينة السَّلام وخبر بنائها وذكر كبراء نزَّالها وذكر وارديها وتسمية علمائها» المشهور على لسان أهل العلم بـ«تاريخ بغداد».

فكم يا تُرى قضى في تأليف هذا الكتاب؟!

قال الأستاذ بشَّار عوَّاد محقِّق الكتاب: «لا ندري الوقت الَّذي بدأ الخطيب فيه تأليف كتابه هذا؛ ولكنَّنا نعلم يقينًا أنَّه كتب نسخته الأولى قبل ذهابه إلى الحجِّ في أواخر سنة (445هـ) حيث شرب ماء زمزم في حجَّته وسأل الله تعالى أن يحقِّق له ثلاثة أمور كان أحدها أن يحدِّث بتاريخه هذا في بغداد نفسها...»[13].

ويذكر الأستاذ بشَّار أنَّ الخطيب رحمه الله كان حريصًا على ضمِّ كلِّ ما يستجدُّ عنده من معلومات أو تراجم وغير ذلك ممَّا له تعلُّقٌ بتاريخه.

يقول الأستاذ (74/1): «إنَّ عشرات النُّصوص في «تاريخ الخطيب» تبيِّن أنَّه كان حريصًا على إضافة كلِّ معلومة تستجدُّ إلى قريب وفاته، لاسيما المعلومات الخاصَّة بذكر وفيات من ترجم لهم قبل أن تدركهم الوفاة في زمانه؛ فقد ذكر مثل وفاة ابن الدجَّاجي الَّتي كانت في سلخ شعبان من سنة (463هـ) أي قبيل وفاته بثلاثة أشهر».

قلت: ما بين سنتي (445) و(463) للهجرة ما يقارب ثماني عشرة سنةً (18) قضاها الخطيب في كتابة «التَّاريخ»، لكنَّ الَّذي يظهر من تلك النُّقول أنَّ جُزْءًا كبيرًا من التَّاريخ كان ناجزًا قبل سنة (445هـ) ممَّا يؤكِّد أنَّ عمر «التَّاريخ» الكامل يدور بين خمس وعشرين وبين ثلاثين سنة، ولعلَّه أكثر، ليس ذلك غريبًا في حقِّ كتاب في حجم «تاريخ بغداد»، والله تعالى أعلم.

◆ «تاريخ دمشق» لابن عساكر:

كان ابن عساكر منشغلاً بالطَّلب والرِّحلة فيه، فجاب الأرض شرقًا وغربًا، وقد أخذ منه ذلك ريحانةَ شبابه ثمَّ كتب بعد ذاك التَّطواف العريض شعرًا سجَّل فيه حكاية الرِّحلة، لكنَّه رجع مليئًا يتزاحم عليه الطَّلبة ويطلبه الولاة، وحين همَّ بكتابة «تاريخ دمشق» طار الخبر كلَّ مطار، وصار كلامَ النَّاس في نواديهم ومجالسهم ممَّا جعله بعد أن فترت همَّته في إكماله لأحوال ألَمَّت به؛ يستأنف الأمر من جديد.

شرع ابن عساكر في تأليف «تاريخه» كما قال السَّمعاني حين دخل نيسابور وكان ذلك كما جاء في الأخبار سنة (529هـ)، وانتهى من تصنيفه في مرحلته الأولى سنة (549هـ)، وبلغ خمسمائة

---

(12) «الجامع لأخلاق الراوي» (309/1) و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (36/5).

(13) (74/1).

وسبعين جزءًا، ثمَّ أخذ يزيد فيه ويضمُّ إليه ما يستجدُّ عنده حتَّى تمَّت نسخته الجديدة المؤلَّفة من ثمانين مجلَّدًا سنة (559هـ).

وقدَّر د. المنجد أنَّ الحافظ [ابن عساكر] سلخ في تأليف تاريخه ثلاثين سنةً أو أقلَّ قليلاً.

قال النَّوويُّ: «هو حافظ الشَّام، بل هو حافظ الدُّنيا، الإمام مطلقًا، الثِّقة الثَّبت».

وصفه السُّبكيُّ بقوله: «ناصر السُّنَّة وخادمها... إمام أهل الحديث في زمانه، وختام الجهابذة الحفَّاظ... البحر الَّذي لا ساحل له»(14).

❖❖❖

وأخيرًا أقول: ليس ما ذكرته إلاَّ نماذج مثَّلتُ بها وإلاَّ ففي صحائف التَّاريخ من الكنوز من مثل ما ذكرت كثيرٌ لا يزال خفيًّا على كثير من النَّاس أخبارُها، وإنَّه لحريٌّ بكلِّ طالب علم لا يزال في نفسه بقيَّةٌ من حبِّ الخير لهذه الأمَّة أن يعلم كم كان للكلمة من الوزن عندهم، ولكنَّ الأحرى أن يعلم أنَّ الشَّأنَ كلَّ الشَّأن إنَّما هو في الكلمة حينما تكون في نفسها بيانًا؛ ذوقًا واختيارًا ورعايةً.

قال أبو فهر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكلمة هي البيان، والبيان هو نعمة الله الكبرى الَّتي أنعم الله بها على عباده من كلِّ جنس ولون، وكذلك علَّمنا ربُّنا ـ سبحانه ـ إذ قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن] فمن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده، وبالنِّعمة الكبرى الَّتي أخرجته من حدِّ البهيمة العجماء إلى حدِّ الإنسان النَّاطق...»(15).

ثمَّ أختم بنصيحة صادقة لكلِّ عجول يمتهن الكتابة ولم يريِّش بعد:

إنَّ على المرء إنْ كان قد تلبَّس بشيء من العجلة فيما مضى من عهده؛ أن يتحرَّز فيما يستقبل من الزَّمن، وقد قيل: «ربَّ عجلة تهب ريثًا» والعاقل لا يدع من نفسه فرجة يتورَّدها من يريد اقتحام عورته من خلالها، إلاَّ هبَّ هبوب الرِّيح لسدِّها، والعبد متى ما تلمَّس عيوب نفسه وسعى في إصلاحها، أنجح الله حاجته، وقضى له أرَبَه، وعادت الصَّفقةُ رابحةً من جديد.

ثمَّ أقول لأناس من ربائب أوروبَّا ممَّن هم في حجورنا طالما يصبِّحوننا ويمسون بمآثر الغرب ومحافله، وفي المقابل يهونون من شأن أمَّتنا وملَّتنا:

إنَّ أمَّة الإسلام أمَّةٌ عظيمة عِظَمَ دينها وأخلاقها، وإنَّ رحمها ولود ومجدها ينبو؛ لكن يعود ويكفينا في ردِّ سفههم: واقعٌ لكبراء أمَّتنا حكيناه، وشهاداتٌ من عقلائهم ـ في تصديق ذلك ـ لا تزال تَفِدُنا، والحمد لله.

لولا عجـائب صنع الله ما ثبتت
تلك الفضائل في لحم ولا عصب

---

(14) انظر: «مقدِّمة تاريخ دمشق» للمحقِّق محبِّ الدِّين أبي سعيد العمروي (25، 29 ـ 31).

(15) «أباطيل وأسمار»/محمود شاكر (ص562).

رسالة في حكم نظر الذمية إلى المسلمة

لمحمد بن حمزة الكوز الحصاري (1010هـ)

تحقيق: د/عبد المجيد جمعة

أستاذ الفقه بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

إنَّ الله تعالى شرَّف المرأة المسلمة وكرَّمها، إذ أمرها بالحجاب، وأرشدها إلى التَّحلِّي بحلل الآداب، ذلك خيرٌ لها وحسن مآب، وفرض عليها ألاَّ تبدي زينتها للأجانب، صيانة للنَّفس من دواعي الهوى، وحفاظًا على المجتمع من الانحلال ممَّا تجلبه نزوات الشَّهوة، ولا يخفى ما يترتَّب على ذلك من المفاسد وسوء العواقب؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31].

وقد اختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾، فقيل: عني به عموم النِّساء سواء كنَّ مسلمات أم كافرات.

وقيل: عني به النِّساء المسلمات، أي نسائهنَّ الَّتي على دينهنَّ.

فبناءً على هذا، هل يجوز للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها للكافرة وتتكشف لها؟!

هذا ما سنجده في هذه الرِّسالة اللَّطيفة في مضمونها، الطَّريفة في موضوعها، للشَّيخ محمَّد ابن حمزة الكوز الحصاري الآيديني، المفسِّر الفقيه الرُّومي الحنفي[1] المتوفَّى سنة (1010هـ)، حيث تضمَّنت الكلام عن حكم نَظَر المرأة الذِّمِّيَّة إلى عورة المرأة المسلمة، وحكم دخول الحمَّام معها.

وقد قرَّر المصنِّف رحمه الله تحريم ذلك، وساق نصوص أئمَّة المذاهب في ذلك.

وقد استهان كثيرٌ مِنَ المسلمات بهذا الحكم،

(1) انظر ترجمته في «هديَّة العارفين» (265/6)، «معجم المؤلِّفين» (271/9).

حيث لا يتورَّعْنَ عن كشف العورات أمام الكافرات، وقد عمَّ ذلك شتى المجالات، كالجامعات والمؤسَّسات والمستشفيات، بل قد تذهب كثيرٌ منهنَّ إلى بلاد الكفَّار فتضع ثيابها هناك متبرِّجة بزينتها دون أدنى وَرَعٍ أو خَجَلٍ.

ولَمَّا رأيت كثيرًا من أخواتنا يجهلن هذا الحكم، دعتني دَاعِيَتِي، وحرَّكتني غَيْرَتِي إلى نشرِ هذه الرِّسالة النَّافعة؛ لتكون نصيحة لهنَّ.

وقد اعتمدت على نسخةٍ خطيَّةٍ، مصدرها: «معهد الثَّقافة والدِّراسات الشَّرقيَّة»؛ جامعة طوكيو ـ اليابان؛ وتقع في ورقة واحدة، ضمن مجموع: [1ق (52) برقم (1143)]؛ فقمت بنسخها، وتصويب الأخطاء الواقعة فيها، واستدراك السَّقط، وجعلته بين معقوفتين [ ]، والتَّعليق على مسائلها بحسب جُهد المقلّ، والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

▫ ▫ ▫

صورة المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الَّذين اصطفى.

اعلم أنَّه اخْتُلِفَ في نظر الذِّمِّيَّة إلى المسلمة، فقيل: إنَّه كنظر المسلمة إلى المسلمة، وأنَّ النِّساء كلَّهنَّ سواء، واختاره من الشَّافعيَّة الغزالي[2]، وبه يشعر ما ذكره بعض علمائنا: إذا ماتت امرأة مسلمة بين رجال، وليس بينهم من النِّساء إلاَّ امرأة ذمِّيَّة، يعلِّمونها كيفية غسلها[3].

[و][4] قيل: كنظر الرَّجل إلى الأجنبيَّة، وهو الأحفظ الموافق لظاهر[5] النَّصِّ، أعني قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [النور: 31]، وبه قال أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه وأبو[6] عبيدة ابن الجرَّاح[7]؛ ولهذا يمنع نساء أهل [الكتاب أن يدخلن الحمَّام مع المسلمات][8]، [وإليه ذهب][9] عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما فقال: «قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، هنَّ المؤمنات، وليس للمؤمنة أن تتجرَّد[10] بين يدي مشركة [أو كتابية][11]»[12]، كذا في «الكشَّاف»، و«المعالم»[13]؛ ووافقه مفتي الحنفيَّة الفقيه أبو اللَّيث السَّمرقندي [فقال][14] في قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾: «ويكره للمرأة أن

---

(2) انظر: «الوسيط» (5/30).

(3) انظر: «المبسوط» للشَّيباني (3/79)، «البحر الرَّائق» (2/188).

(4) زيادة يقتضيها السِّياق.

(5) في الأصل: «الظَّاهر».

(6) في الأصل: «أبي»؛ وهو لَحْنٌ.

(7) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (1/295؛ 296)، والطَّبري في «تفسيره» (19/160)، وسعيد بن منصور في «سننه» ـ كما في «تفسير ابن كثير» (6/47)، وهو في الجزء المفقود من «السُّنن» ـ، وعنه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (7/95)، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (6/183) لابن المنذر، عن قيس بن الحارث، قال: «كتب عمر بن الخطَّاب إلى أبي عبيدة: بلغني أنَّ نساء من نساء المؤمنين والمهاجرين يدخلن الحمَّامات ومعهنَّ = نساء من أهل الكتاب، فازجر عن ذلك وحُلْ دونه، فقال: ـ كذا في «المصنَّف» ـ، ولعلَّ الصَّواب: فقام أبو عبيدة وهو غضبان ـ ولم يكن غضوبًا ولا فاحشًا ـ فقال: «اللَّهمَّ أيُّما امرأة دخلت الحمَّام من غير علَّة ولا سَقَمٍ تريد بذلك أن تبيض وجهها فسوِّد وجهها يوم تبيضُّ الوجوه»؛ وفي لفظ: «بلغني أنَّ نساءً مِنْ نساء المسلمين قبلك يدخلن الحمَّام مع نساء المشركات، فَانْهَ عن ذلك أشدَّ النَّهي؛ فإنَّه لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن يرى عوراتها غير أهل دينها، قال: فكان عبادة بن نسي ومكحول وسليمان يكرهون أن تُقَبِّلَ المرأةَ المسلمةَ المرأةُ من أهل الكتاب»؛ وإسناده صحيح.

(8) هذه الزِّيادة ساقطة من الأصل، واستدركتها من «تفسير البغوي» حيث نقل منه المصنِّف.

(9) سقط في الأصل، كما تقدَّم التَّنبيه عليه قبل قليل، وذكرت هذه الزِّيادة حسب ما يقتضيه السِّياق، والله أعلم.

(10) في الأصل: «للمؤمنات أن يتجرَّد»؛ والتَّصويب من «الكشَّاف».

(11) زيادة من «الكشَّاف».

(12) نقله عنه الزَّمخشري في «الكشَّاف» كما قال المصنِّف، وعزاه السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (6/183) إلى عبد ابن حميد وابن المنذر من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه بلفظ: «﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ قال: من المسلمات لا تبديه ليهوديَّة ولا لنصرانيَّة، وهو النَّحر والقرط والوشاح وما حوله»، والكلبي هو: محمَّد بن السَّائب الكوفي، متَّهم بالكذب؛ كما قال الحافظ في «التَّقريب».

(13) انظر: «الكشَّاف» (3/236)، و«معالم التَّنزيل» للبغوي (6/35).

(14) زيادة يقتضيها السِّياق.

تنظر [إليها][15] امرأة فاجرة؛ لأنَّها تصف [ذلك] عند الرِّجال[16].

واختاره من الشَّافعية البغوي، ورجَّحه الشَّيخ محيي الدِّين النَّووي، قال في «الرَّوضة»: «في نظر الذِّمِّيَّة إلى المسلمة وجهان: عند الغزالي كالمسلمة، وعند البغوي المنع، وهو الأصحُّ»[17].

فعلى هذا؛ لا تدخل[18] الذِّمِّيَّة الحمَّام مع المسلمات؛ اختاره في «السِّراج[19] الوهَّاج»[20]؛ حتَّى لا يحلّ للمسلمة أن تتكشف[21] عند كتابيَّة أو[22] مشركة إلاَّ أن تكون أمَةً، واختاره صاحب «نصاب الاحتساب»[23] بقوله: إلاَّ أن تكون [المشركة][24] أمَةً لها؛ وصحَّحه الإمام الزَّاهدي في «المجتبى»[25] بقوله: «ولا يجوز، وهي كالرَّجل الأجنبيِّ»[26]؛ وصحَّحه في «التَّنوير»[27] بقوله: «والذِّمِّيَّةُ كالرَّجل الأجنبيِّ، فلا تنظر إلى المسلمة في الأصحِّ»[28].

---

(15) ساقطة من الأصل، استدركتها من «بحر العلوم»، وهي زيادة يقتضيها السِّياق، وكذا الَّذي بعدها.

(16) كذا في الأصل، وقد اختزل المصنِّف عبارة السَّمرقندي، ولفظه كما في «بحر العلوم» (2/509): «يعني: نساء أهل دينهنَّ، ويكره للمرأة أن تظهر مواضع زينتها عند امرأة كتابيَّة؛ لأنَّها تصف ذلك عند غيرها، ويقال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني: العفائف؛ ولا ينبغي أن تنظر إليها المرأة الفاجرة؛ لأنَّها تصف ذلك عند الرِّجال».

(17) تصرَّف المصنِّف في عبارة النَّووي، ولفظه كما في «روضة الطَّالبين» (7/25): «..وجهان: أصحُّهما عند الغزالي كالمسلمة؛ وأصحُّهما عند البغوي المنع؛ فعلى هذا، لا تدخل الذِّمِّيَّة الحمَّام مع المسلمات... قلت: ما صحَّحه البغوي هو الأصحُّ أو الصَّحيح».

(18) في الأصل: «يدخل».

(19) في الأصل: «سراج».

(20) انظر: «السِّراج الوهَّاج على متن المنهاج» (361) للعلاَّمة محمَّد الزُّهري الغمراوي.

(21) في الأصل: «ينكشف».

(22) في الأصل: «و»، ولعلَّ الصَّواب ما أثبته.

(23) انظر «نصاب الاحتساب» (225) للشَّيخ ابن عوض السّنامي الحنفي.

(24) في الأصل: «يكون»، والتَّصويب والزِّيادة من «نصاب الاحتساب».

(25) هو «المجتبى شرح مختصر القدوري» لنجم الدِّين مختار ابن محمَّد بن محمود الغزميني، الشَّهير بالزَّاهدي، المتوفى سنة (658هـ)، ويعتبر من أهمِّ الكتب الَّتي شرحت «مختصر القدُوري» في الفقه الحنفي، والكتاب لا يزال في عالم المخطوطات.

(26) في الأصل: «الأجنبيَّة».

(27) انظر «الدُّرّ المختار شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة» للحصكفي (5/689).

(28) ما اختاره المصنِّف هو مذهب جمهور السَّلف والخلف، وبه قال ابن جريج وعبادة بن نُسَي ـ بضمِّ النُّون وفتح المهملة الخفيفة ـ وهشام القارئ ومجاهد ومكحول وسليمان بن موسى وسعيد بن جبير، واختاره من المفسِّرين مقاتل والطَّبري وابن عطيَّة والقرطبي والبقاعي والبيضاوي وابن كثير وابن الجوزي والألوسي وغيرهم؛ وهو مذهب الحنفيَّة والشَّافعيَّة والمعتمد عند المالكية، وهو رواية عن الإمام أحمد، فقد قال: إنَّ المسلمة لا تكشف قناعها عند الذِّمِّيَّة، ولا تدخل معها الحمَّام لقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، وقال أيضًا: أكره أن يطَّلع أهل الذِّمَّة على عورات المسلمين؛ وإليه ذهب بعض الحنابلة، واختاره شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم؛ ورجَّحه ابن القطَّان الفاسي في «أحكام النَّظر»؛ وهو الصَّحيح، وحسبك أنَّه قول عمر، ولا يعلم له مخالف من الصَّحابة، بل أقرَّه أبو عبيدة بن الجرَّاح، وبه قال ابن عبَّاس كما تقدَّم، ولقوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾، والكافرة ليست من نساء المؤمنات، وتخصيصهنَّ بالذِّكر يدلُّ على اختصاصهنَّ بذلك، وإلاَّ لم يبق للتَّخصيص فائدة؛ ولأنَّ كشف المرأة المسلمة عن زينتها أمام المرأة الكافرة قد يكون ذلك ذريعة إلى وصفها إلى زوجها=

واختلف في الصِّبيان الَّذين يشتهون[29] النِّسوان، ويقدرون على إتيانهنَّ، هل لهم الدُّخول عليهنَّ، والحضور لديهنَّ؟

فقيل: نعم، ففي «الأشباه»[30] لابن نجيم عن «المُلتَقَط»: «وليس الصَّبيُّ كالبالغ في النَّظر إلى الأجنبيَّة، والخلوة [بها][31] فيجوز [له] الدُّخول على النِّساء إلى خمسة عشر سنة». انتهى.

ولا يخفى على أولي الحميَّة من ذوي الأبصار؛ أنَّه لا يقصر به إلاَّ البُلْه، والقول الصَّحيح الموافق للنَّصِّ الصَّريح ـ أعني قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ ـ عدم جوازه، وهو المرجَّح في كتب الشَّافعيَّة[32]، وفي

= أو إلى رجل أجنبيٍّ، وقاعدة سدِّ الذَّرائع أحد أرباع الدِّين؛ قال الحافظ ابن كثير: «وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني: تُظهر زينتها أيضًا للنِّساء المسلمات دون نساء أهل الذِّمَّة؛ لئلاَّ تصفهنَّ لرجالهنَّ، وذلك ـ وإن كان محذورًا في جميع النِّساء ـ إلاَّ أنَّه في نساء أهل الذمَّة أشدّ، فإنَّهنَّ لا يمنعهنَّ من ذلك مانع؛ وأمَّا المسلمة؛ فإنَّها تعلم أنَّ ذلك حرام، فتنزجر عنه؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تُبَاشِرُ المَرْأَةُ المَرْأَةَ، تَنْعَتُهَا لِزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا**» أخرجاه في «الصَّحيحين» عن ابن مسعود. انتهى.

وأمَّا ما روي بأنَّ النِّساء الكوافر من اليهوديَّات وغيرهنَّ قد كنَّ يدخلن على نساء النَّبيِّ ﷺ فلم يكنَّ يحتجبن، ولا أُمِرن بالحجاب؛ فيحتمل أنَّ ذلك كان قبل نزول هذه الآية، أو أنَّه ليس فيه تصريح بأنَّهنَّ كنَّ يبدين زينتهنَّ أمامهنَّ، أو أنَّهنَّ أظهرن لهنَّ ما يبدو في المهنة، وأمَّا ما رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (2577/8) عن عطاء الخراساني، قال: «لَمَّا قدم أصحاب النَّبيِّ ﷺ بيت المقدس، كان قَوَابل نسائهم اليهوديَّات والنَّصرانيَّات»، على تقدير صحَّته فهو محمول على حال الضَّرورة، والله أعلم.

انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (2577/8)، «تفسير مقاتل» (417/2)، «تفسير الطَّبري» (160/19)، «المحرَّر الوجيز» (179/4)، «تفسير القرطبي» (233/12)، «نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور» (259/5)، «تفسير البيضاوي» (183)، «زاد المسير» (32/6)، «إعانة الطَّالبين» (262/3)، «الإقناع» للشَّربيني (407/2)، «مغني المحتاج» (131/3)، «نهاية المحتاج» (194/6)، «حاشية ابن عابدين» (371/6)، «المغني» (505/9 ـ تحقيق التُّركي والحلو)، «مجموع الفتاوى» (112/22)، «أحكام أهل الذِّمَّة» (1310/3)، «الانصاف» للمرداوي (24/8)، «النَّظر في أحكام النَّظر» (263)، «عرائس الغرر في أحكام النَّظر» للهيتي (83).

(29) في الأصل: «الَّذي يشبهون»، وهو تحريف.

(30) انظر «الأشباه والنَّظائر» (339).

(31) الزِّيادة من «الأشباه»؛ وكذا الَّذي بعدها.

(32) وإليه ذهب الحنفيَّة والمالكيَّة ورواية عند الحنابلة، وبه قال مجاهد، واختاره من المفسِّرين الجصَّاص وابن العربي والسَّمرقندي وابن السَّمعاني والنَّسفي والبيضاوي والقرطبي وابن كثير وغيرهم؛ وهو الصَّحيح بدليل قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ [النور: 58]، فأمر الله تعالى الطِّفل الَّذي قد عرف عورات النِّساء بالاستئذان في الأوقات الثَّلاثة؛ ولأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بالتَّفريق بين الأطفال في المضاجع إذا بلغوا سنَّ العاشرة، ولم يأمر بذلك قبل العشر، ولا إذا بلغوا الحلم؛ لأنَّه يعرف ذلك في غالب الأحوال، والله أعلم.

انظر: «المجموع» (134/16)، «روضة الطَّالبين» (22/7)، «مغني المحتاج» (130/3)، «نهاية المحتاج» (191/6)، «إعانة الطَّالبين» (258/3)، «البحر الرَّائق» (218/8)، «بدائع الصَّنائع» (123/5)، «تبيين الحقائق» (258/2)، «شرح فتح القدير» (222/3)، «حاشية ابن عابدين» (35/3)، «حاشية الدّسوقي» (213/1)، «حاشية العدوي» (215/1)، «بلغة السَّالك» (192/1)، «منح الجليل» (222/1)، «الفواكه الدَّواني» (312/2)، «المغني» (496/9)، «الإنصاف» =

«التتارخانية»[33]: والغلام إذا بلغ الشّهوة كالبالغ؛ و[مثله][34] في «السِّراج الوهّاج»[35].

والمراد من قوله تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الصّغارى الّذين لا رغبة لهم في النِّساء، ولم يبلغوا مبلغًا يطيقون فيه إتيان النِّساء، فأمَّا الصَّبيُّ الّذي قد ظهر له رغبة فحكمه حكم البالغ، والله أعلم بحقيقة الحال.

تمّت الرِّسالة للعالم[36] محمَّد أفندي في حكم[37] نظر الذِّمِّيَّة إلى المسلمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وما يُفسدُه اللّسانُ من الأديانِ أضعَاف ما تُفسدُه اليدُ، كما أنَّ ما يُصلِحُه اللّسانُ منَ الأديان أضعاف ما تُصلِحُه اليَدُ؛ فثبتَ أنَّ محاربةَ الله ورسولِه باللِّسان أشدُّ، والسَّعيُ في الأرضِ لفَساد الدِّين باللِّسانِ أوكَدُ؛ فهذا السابُّ لله ولرسُولِه أوْلى باسْمِ المُحارِب المفسِد من قاطِع الطَّريق».

[«الصارم المسلول» (1/ 392)]

❊ ❊ ❊

= (23/8)، «الفروع» (109/5)، «تفسير القرطبي» (237/12)، «تفسير البيضاوي» (183)، «تفسير السَّمرقندي» (509/2)، «تفسير ابن السَّمعاني» (523/3)، «تفسير النَّسفي» (144/3)، «أحكام القرآن» للجصَّاص، «أحكام القرآن» لابن العربي (389/3)، «تفسير ابن كثير» (49/6)، «عرائس الغرر» (130).

(33) انظر «الفتاوى التَّتارخانية» لابن العلاء الدَّهلوي (461/3 ـ تحقيق القاضي سجاد حسين).

(34) زيادة يقتضيها السِّياق، وإلاّ لتوهَّم أن قوله: «والمراد من قوله... إلخ» من كلام صاحب «السِّراج الوهَّاج»، وليس الأمر كذلك.

(35) انظر «السِّراج الوهَّاج» (360).

(36) في الأصل: «لعالم».

(37) في الأصل: «حق»، ولعلَّ الصَّواب ما أثبته.

تقويمُ اللّسان والبَنان

نجيب جلواح

اختصّتِ اللّغةُ العربيّةُ بخصائصَ عديدةٍ، ولها ميزاتٌ كثيرةٌ، وإنّ مِن أعظمِ ما اختصّتْ به أنّ اللّهَ تعالى أنزلَ بها خيرَ كتبِهِ وأحسنَ شرائعِ دينِهِ، فهي لغةُ القرآنِ الكريمِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

فارتباطُ الإسلامِ باللّغةِ العربيّةِ ارتباطٌ مَتينٌ، لذا لا يمكنُ فصلُ العربيّةِ عن الدّينِ؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ نزلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، وسنّةُ نبيِّ الإسلامِ ـ عليهِ الصّلاةُ و السّلامُ ـ لا تُفْهَمُ ولا يُدركُ ما فيها مِن أحكامٍ إلاّ باللّغةِ العربيّةِ.

والإلمامُ باللّغةِ العربيّةِ وإتقانها، والتّعمُّق في معرفةِ معانيها، والتّبحُّر في إدراكِ مبانيها وأساليبِها مِن أبرزِ أسبابِ صِحّةِ فهْمِ المسلمِ لدينِ اللّهِ تعالى؛ وذلك لأنّ ممّا يُتوصّلُ به إلى إدراكِ معاني النّصوصِ فَهْمَ العِباراتِ على ما وُضِعتْ له في أصلِها اللُّغويِّ لا بحسبِ ما يُمليهِ العقلُ وحدَهُ، و لذلك كانتْ معرفةُ اللُّغةِ العربيّةِ مِن شروطِ الاجتهادِ، وكان الجهلُ بها سببًا للْهَلَكَةِ.

وإنَّ مِن العلومِ النّافعةِ، المتعدّيةِ إلى غيرِها: عِلْمَ النّحْوِ، فهو أُسُّ العُلومِ الشّرعيّةِ، وأصلٌ مِن أُصولِها، فَبِهِ تُعرفُ مدارِكُ الأحكامِ، وبهِ يَستقيمُ اللّسانُ والبَنانُ ـ نُطقًا وخطًّا ـ، لذا يَنبغي لمن يريدُ التّفقُّهَ في الدّينِ، أنْ يُقدِّمَ على ذلك تعلُّمَ العلومِ العربيّةِ وعلمِ النّحوِ.

وللّهِ درُّ إسحاق بن خلف البهراني القائلِ:

النَّحوُ يُصلِحُ مِنَ لِسانِ الألْكَنِ
والمرءُ تُكرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
والنّحوُ مِثلُ الملحِ إنْ ألقيتَهُ
في كلِّ ضدٍّ من طعامِكَ يحسُنِ
وإذا طلبتَ مِنَ العُلومِ أجلَّها
فأجلُّها منها مُقيمُ الألسُنِ[1]

وقدْ «هجمَ الفسادُ على اللّسانِ، وخالطتِ الإساءةُ الإحسانَ، ودخلتْ لغةَ العربِ، فلم تَزلْ كلَّ يومٍ تنهدمُ أركانُها، وتموتُ فُرسانُهَا، حتّى استُبيحَ حريمُهَا، وهَجُنَ[2] صَميمُهَا[3]، وعفتْ آثارُهَا، وطَفِئَتْ أنوارُهَا، وصارَ كثيرٌ مِن النّاسِ يُخطِئُونَ وهم يَحسبونَ أنّهم مُصيبونَ، وباتتِ الحاجةُ

(1) انظر: «بهجة المجالس وأُنس المجالس» لابن عبد البرّ (ص8).
(2) هَجُنَ الكلامُ وغيرُه: صار مَعيبًا مَرذولاً، وهَجُنَ الأمرُ: قبُح.
(3) الصّميم: المحض الخالص في الخير والشّرّ.



ماسّةً إلى تحفيزِ الهممِ إلى تقويمِ اللّسانِ، وإصلاحِ اعوجاجِهِ بطلبِ العربيّةِ، وفَهمِهَا وإتقانِهَا»[4].

إنّنا نشكُو في هذه الأيّامِ - وأكثرَ مِن أيِّ وقتٍ مضَى -، منَ الضّعفِ العامِّ في اللّغةِ العربيّةِ، ونتألّمُ ألمًا شديدًا منَ الوضعِ المؤسفِ الّذي وصلتْ إليه لغتُنا وعلى أيدي أبنائِها، ونتوجّسُ خيفةً من خطرِ هذا الضّعفِ الذي يزدادُ مع مرورِ الأيّامِ، ولو استمرَّ هذا الضّعفُ في اللّغةِ العربيّةِ مِن غيرِ عِلاجٍ، لأدّى إلى استفحالِه، ثمّ ينتهي الأمرُ بموتِ اللّغةِ والقضاءِ عليها.

وإذا أُصبنا بضعفٍ في لغتنا، ضعُفَتْ صلتُنا بديننا، لأنّنا نكون - حينئذ - قد فقَدنا أداةَ الاعترافِ مِن معينِهِ الصّافي، ولهذا فإنَّ تقصيرنا في حقِّ هذه اللّغةِ تفريطٌ منّا، نُسألُ عنه، ونُدانُ به.

نَعَم، إنّهُ لَمِنَ المُؤسِفِ جدًّا أنْ ترى - في هذا الزّمانِ - بعضَ طلبةِ العلمِ حينما يتكلّمُ أو يكتبُ، يخطئ ويلحن إلى درجة أن تحسب أنّه في أوّلِ الدّراسةِ، مع أنّهُ قد يكونُ ممّن حازَ الشّهاداتِ العاليةَ، كما قد تَسمعُ مِن بعضِهم خِطاباً في موضوعٍ ذي أهميّةٍ، لكنْ يُزهّدُكَ فيه، ويَصرِفُكَ عن سماعهِ والاستفادةِ منه ما شوّهه مِنْ لحنٍ[5] وتصحيفٍ[6]، فتسمعُه يرفعُ ما حقُّهُ النّصبُ، ويجرُّ ما حقُّهُ الرّفعُ، فتنقلبُ الأُمورُ على السّامعِ، ويَفهمُ مِن كلامِهِ خِلافَ مُرادِه؛ و هذه - واللّهِ - مِحنةٌ. لهذا يَتعيَّنُ على الطّلبةِ أنْ يَتعلّمُوا النّحوَ، وأن يُمَرِّنُوا ألسنتَهُمْ وأقلامَهُمْ عليه، حتّى لا تَسُوءَ سُمعتُهمْ بين النّاس، ويَسقطَ قدرُهم، ويُوصَفُوا بالجهلِ.

قالَ عبدُ اللّهِ بنُ المباركِ رَحِمَهُ اللهُ: «اللّحنُ في الكلامِ أقبحُ مِن آثارِ الجُدَرِيِّ في الوجهِ»[7].

وقال علي بن بسام:

ولا تَعْدُ إصلاحَ اللّسانِ فإنّهُ
يُخبِّر عمّا عنده ويُبينُ
ويُعجِبُني زَيُّ الفَتى وجمالُه
فيَسقُطُ مِن عَيْني ساعةَ يَلْحَنُ[8]

واللّحنُ ضررُهُ وَخيمٌ، وخَطْبُهُ جسيمٌ؛ فقد يؤدِّي بصاحبه إلى الكذبِ والتَّقوُّل على اللّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ؛ وكفَى بذلك جُرماً عظيماً وإثماً مُبيناً؛ روى أبو حاتمٍ محمّدُ بنُ حِبّانَ البُسْتيّ عن الأصْمَعيّ أنّه قالَ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ على طالبِ العلمِ إذا لم يَعرفِ النّحوَ أنْ يَدخُلَ فيما قالَ النّبيُّ ﷺ: «مَن كذبَ عليَّ متعمّداً فليتبوّأْ مقعدَهُ منَ النّارِ»، لأنّهُ - عليه الصّلاةُ والسّلامُ - لم يكنْ لحّاناً، ولم يلحَنْ في حديثِهِ، فمهْمَا رَويتَ عنه ولحنتَ فيه، فقد كَذَبتَ عليه»[9].

وصاحبُ اللّحْنِ يُدخِلُ في الكتابِ والسُّنّةِ ما

---

(4) مُقتبس مِن مقدّمة ابن مَكي الصِّقلّي لكتابه: «تثقيف اللّسان وتنقيح الجَنان».

(5) اللّحْن: هو الخطأ، كنصب المرفوع، ورفع المجرور، ونحو ذلك.

(6) التّصحيف: هو التَّشابُهُ في الخطِّ بين كلمتين فأكثر، بحيثُ لو غُيِّرتْ نُقَطُ كلمةٍ لكانت عينَ الثّانية، نحو: التَّحلّي، والتَّجلّي، والتَّخَلّي.

(7) انظر: «بهجة المجالس وأُنس المجالس» لابن عبد البرّ (ص9).

(8) المصدر السّابق (ص7).

(9) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص223).

ليسَ فيهما، ويُخرجُ منهما ما هو فيهما، بخلافِ الفصيحِ، فإنّه يقرأُ القرآنَ دون لحنٍ، فيُقيمُ حُروفَهُ، لذا كانَ أفضلَ حالاً وأرْفعَ شأناً؛ فعنْ سالمٍ ابنِ قُتَيْبَةَ قال: «كنتُ عندَ ابنِ هُبَيْرَةَ الأكبرِ فجرَى الحديثُ حتّى جرَى ذِكرُ العربيّةِ فقالَ: واللّهِ ما استوَى رَجُلانِ دينهُما واحدٌ، وحَسَبُهما واحدٌ، ومُروءتُهما واحدةٌ، أحدُهما يَلْحنُ والآخرُ لا يَلْحنُ، إنّ أفضلَهُما في الدّنيا والآخرةِ الذي لا يَلْحنُ، قُلتُ: أصلحَ اللّهُ الأميرَ، هذا أفضلُ في الدُّنيا لِفضلِ فصاحتِهِ وعَربيّتِهِ، أرأيتَ الآخرةَ ما بالُهُ فُضِّلَ فيها؟ قالَ: إنّهُ يقرأُ كتابَ اللّهِ على ما أنزلَهُ اللّهُ، وإنّ الذي يَلْحنُ يحمِلُهُ لحنُهُ على أنْ يُدخِلَ في كتابِ اللّهِ تعالى ما ليسَ فيه، ويُخرجَ منه ما هو فيهِ، قالَ: قلتُ: صدقَ الأميرُ وبرَّ»[10].

وأكثرُ مَن ضلَّ مِن أصحابِ الفِرقِ المنحرفةِ، ومَن زاغَ من المبتدعةِ وأهلِ الأهواءِ، إنّما أُتوا من جهلِهم باللّغةِ العربيّةِ؛ ففسَّروا النّصوصَ تبعاً لأهوائِهم، وفهمُوا القرآنَ على غيرِ مُراد اللّه تعالى، فضلُّوا وأضلُّوا؛ قال الزُّهريّ: «إنّما أخطأَ النّاسُ في كثيرٍ من تأويلِ القرآنِ لجهلِهم بلغةِ العربِ»، وقالَ أبو عُبَيْدٍ: «سمعتُ الأصمعيَّ يقولُ: سمعتُ الخليلَ ابنَ أحمدَ يقولُ: سمعتُ أبَا أيّوبَ السَّخْتِيَانيّ يقولُ: «عامّةُ مَن تزندقَ بالعراقِ لقلّةِ علمِهم بالعربيّة»[11].

وقالَ الشّاطبيّ رحمه الله ـ في معرضِ حديثِه عن استدلالاتِ أهلِ البدعِ ـ: «ومنها: تخرّصُهم على الكلامِ في القرآنِ والسنّةِ العَرَبِيَّيْنِ مع العُزوفِ عن علمِ العربيّةِ، الذي يُفهمُ به عن اللّهِ ورسولِه، فيفتاتونَ على الشّريعةِ بما فهمُوا، و يدينونَ به، ويُخالفُونَ الرّاسخينَ في العلمِ»[12].

أمّا علماءُ أهلِ السنّةِ فقد أدركُوا علاقةَ الإسلامِ المتينةَ باللّغة العربيّة، فأتقنوها غايةَ الإتقانِ، فكان ذلك خيرَ وسيلةٍ للفهمِ الصّحيحِ لنُصوصِ الكتابِ والسنّةِ، وخيرَ عونٍ لهم على استنباطِ الأحكامِ الشّرعيّةِ.

ولقدْ كانَ سلفُنا الصّالحُ يحرِصونَ على تقويمِ ألسنتِهم، و يجتنبونَ اللّحنَ في كلامِهم، ويعدّون ذلك عَيْباً؛ لذا أمرُوا بتعلُّمِ العربيّة والتّفقّه فيها، للبُعد عن معرّةِ الخطأ، وشَيْنِ الخطلِ، ومِن التّشبُّهِ بهم اجتنابُ اللَّحنِ؛ لأنّهم ما كانوا يَلحَنونَ في نُطقِهم، ولا يُخطِئون في خطِّهم.

ولمّا كانتِ اللّغةُ العربيّةُ بهذه المثابةِ وفي هذه المنزلةِ، وأنّها طريقٌ إلى فهمِ نُصوصِ الوحيَيْنِ، ووسيلةٌ لحفظِ الشّريعةِ، ذهبَ كثيرٌ مِنْ أهلِ العلمِ إلى القولِ بوجوبِ تعلُّمِها، وحُسنِ استعمالِها، واعتبرُوا ذلكَ منَ الدِّينِ.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميّةَ رحمه الله: «واعلمْ أنَّ اعتيادَ اللّغةِ يُؤثِّرُ في العقلِ والخُلُقِ والدّينِ تَأثيراً قويّاً بيِّناً، ويُؤثِّرُ أيضاً في مُشابهةِ صدرِ هذه الأمّةِ مِن الصّحابةِ والتّابعينَ، ومُشابهتُهمْ تزيدُ العقلَ والدِّينَ والخُلُقَ،

(10) انظر: «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب البغدادي [التَّرغيب في تعلُّم النَّحو والعربيَّة لأداء الحديث بالعبارة السَّويَّة] (2/25).

(11) انظر: مقدِّمة كتاب «المؤمَّل في الرَّدِّ إلى الأمر الأوَّل» لأبي شامة المقدسي، و«عناية المسلمين باللُّغة العربيَّة خدمة للقرآن الكريم» لسليمان بن إبراهيم العايد (ص25).

(12) «الاعتصام» (1/237).

وأيضاً فإنّ نفسَ اللّغةِ العربيّةِ مِن الدّين، ومعرفتُها فرضٌ واجبٌ، فإنّ فهمَ الكتابِ والسنّةِ فرضٌ، ولا يُفهمُ إلاّ بفهمِ اللُّغةِ العربيّةِ، و ما لا يتمُّ الواجبُ إلاّ به فهوَ واجبٌ، ثمّ منها ما هو واجبٌ على الأعيانِ، ومنها ما هو واجبٌ على الكِفايةِ، وهذا معنى ما رواهُ أبو بَكرِ بنِ أبي شَيْبَةَ[13] حدّثنا عيسى ابنُ يُونُسَ عن ثَوْرٍ عنْ عُمَرَ بنِ زَيد قالَ: «كتبَ عُمَرُ رضي الله عنه إلى أبي مُوسى الأشعريّ رضي الله عنه: أمّا بعدُ، فتفقّهُوا في السنّةِ، وتفقّهُوا في العربيّةِ، وأَعْرِبوا القرآنَ فإنّه عربيٌّ».

وفي حديثٍ آخرَ عن عُمَرَ رضي الله عنه أنّه قالَ: «تعلّمُوا العربيّةَ فإنّها مِن دينِكمْ، وتعلّمُوا الفرائضَ فإنّها مِن دينِكمْ».

وهذا الذي أمَرَ به عُمَرُ رضي الله عنه مِن فِقهِ العربيّةِ، وفِقهُ الشّريعةِ يَجمعُ ما يُحتاجُ إليهِ، لأنَّ الدّينَ فيه فِقهُ أقوالٍ وأعمالٍ، ففِقهُ العربيّةِ هو الطّريقُ إلى فِقهِ أقوالِهِ، وفِقهُ السنّةِ هو الطّريقُ إلى فِقهِ أعمالِهِ»[14].

وقَالَ النّوويّ رحمه الله: «وعلى طالبِ الحديثِ أن يتعلّمَ مِنَ النّحوِ واللُّغَةِ ما يَسلَمُ به منَ اللّحْنِ والتّصحيفِ»[15].

وقال ابنُ الصَّلاحِ رحمه الله: «فحقّ على طالبِ الحديثِ أنْ يتعلّمَ مِنَ النَّحْوِ واللُّغَةِ ما يتخلّصُ بهِ منْ شَيْنِ اللّحْنِ، والتّحريفِ، ومَعَرَّتِهمَا»[16].

وقال السَّخاويّ رحمه الله: «وظاهرُه الوجوبُ، وبه صرّحَ العزُّ بنُ عبدِ السّلامِ، حيثُ قال - في أواخرِ القواعدِ -: ..فالواجبةُ: كالاشتغالِ بالنّحوِ الذي نُقيمُ به كلامَ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ، لأنَّ حفظَ الشّريعةِ واجبٌ لا يتأتّى إلاّ بذلك، فيكونُ مِنْ مُقدّمةِ الواجبِ، ولذا قال الشّعبيّ: «النّحوُ في العلمِ كالملحِ في الطّعامِ، لا يَستغني شيءٌ عنه»... وكذا صرّحَ غيرُه بالوجوبِ أيضاً، لكنْ لا يجبُ التّوغُّلُ فيه، بل يكفيهِ تحصيلُ مُقدّمةٍ مُشيرةٍ لمقاصدِهِ بحيثُ يفهمُها ويميّزُ بها حركاتِ الألفاظِ وإعرابِها لئلاّ يلتبسَ فاعلٌ بمفعولٍ، أو خبرٌ بأمرٍ، أو نحو ذلك، وإنْ كان الخطيبُ قال - في «جامعه» -: إنّهُ ينبغي للمُحدِّثِ أنْ يتّقيَ اللّحنَ في روايتِهِ، ولنْ يقدرَ على ذلك إلاَّ بَعْدَ دُرْبةِ النّحوِ، ومُطالعتِهِ عِلمَ العربيّةِ»[17].

وقال المُظَفَّرُ بنُ الفَضْلِ رحمه الله: «فأمّا النّحوُ فإنّهُ مِن شرائطِ المتكلّمِ، سواء كان ناظماً أو ناثرًا، أو خطيباً أو شاعرًا ولا يمكنُ أنْ يَستغنيَ عنه إلاّ الأخْرسُ الذي لا يُفصحُ بحرفٍ واحدٍ، وكان بعضُ البُلغاءِ يقولُ: إنّي لأجدُ لِلَّحنِ في فمي سُهُوكَةً[18] كَسُهُوكَةِ اللّحم...

وهذا حثٌّ على تقويمِ اللّسانِ وتأدُّبِ الإنسانِ، وقال الأصمعي: «تعلّمُوا النّحوَ فإنّ بني إسرائيلَ كفرُوا بكلمة واحدة كانت مشدَّدة فخفّفوها، قال اللّه: يا عيسى إني ولدتُك، فقرؤوا: يا عسيى إنّي ولدتك، مخفّف فكفروا»[19]، وما قدْ وردَ في

(13) «المصنّف» (25651، 29914).

(14) «اقتضاء الصّراط المستقيم» (ص207).

(15) انظر: «تدريب الرّاوي» للسّيوطي (2/106).

(16) «مقدّمة ابن الصّلاح» (1/47).

(17) «فتح المغيث شرح ألفيَّة الحديث» (2/258 - 259).

(18) وهي رائحة اللّحم الخنز، وريح السّمك، أو ريح العرق والصّدأ.

(19) «روضة العقلاء» (ص221 - 222).

الحثّ على تَعلُّم النّحو، وفي شرفِ فضيلتِه وجلالةِ صِناعتِه، لو تعاطينا حِكايتَه لاحتجْنا فيه إلى كتابٍ مُفردٍ، إذْ بمعرفتِهِ يُعقَلُ عنِ اللهِ عزّ وجلّ كتابُه، وما استوعاهُ مِن حكمتِهِ، واستودعَهُ مِن آياتِه المبينةِ، وحُجَجِهِ المنيرةِ، وقُرآنِهِ الواضحِ، ومواعظِهِ الشّافيةِ، وبه يُفهمُ عن النّبيِّ ﷺ آثارُه المؤدّيةُ لأمرِهِ ونهيِهِ وشرائعِهِ وسُنَنِهِ، وبه يَتّسِعُ المرءُ في مَنطقِهِ، فإذا قالَ أفْصحَ، وإذا احتجَّ أوْضحَ، وإذا كتبَ أبلغَ، وإذا خَطبَ أَعْجبَ»[20].

وقدْ ضُرِبَتْ أمثالٌ بليغةٌ فيمنْ أحسنَ ألواناً منَ العلمِ، ولكنّه لم يُتقنِ العربيّةَ، ولم يُحسنْ ضبطَ ألفاظِها؛ فقالَ شُعبةُ: «مَن طلبَ الحديثَ ولم يُبصرِ العربيَّةَ، فمَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ عليه بُرْنُسٌ ليسَ له رأسٌ» أو كما قالَ[21].

وقالَ حمّادُ بنُ سَلَمَةَ: «مَثَلُ الذي يَطلبُ الحديثَ ولا يَعرِفُ النّحوَ مَثَلُ الحِمارِ عليه مِخْلاةٌ[22] لا شَعيرَ فيها»[23].

وتَضييعُ اللّسانِ أَشدُّ وأَضرُّ على النّفسِ مِن تضييعِ المالِ والثّروةِ؛ فقدْ قالَ الشّافعيّ رحمه الله: «تعلّمُوا النّحوَ، فإنّه - واللهِ - يُزْرِي بالرّجُلِ أنْ لا يكونَ فَصيحاً، ولقدْ بَلغَني أنَّ رَجُلاً دخلَ على زيّادِ ابنِ أبيه فقالَ له: أصلحَ اللّهُ الأميرَ، إنَّ أَبينَا هلكَ، وإنَّ أَخينَا[24] غَصَبَنَا على ما خلّفهُ لنا، فقال له زِيَادٌ: ما ضيَّعتَ مِن نفسكَ أكثرُ ممّا ضاعَ مِنْ مالِكَ»[25].

وكثرةُ الاعتناءِ بجمعِ المالِ والحرصُ على ذلك مَشْغَلةٌ عن تقويمِ اللّسانِ؛ فقد روى البيهقيّ عن ابنِ السّائبِ قال: «شهدتُ الحسنَ، فأتاهُ رَجُلٌ، فقال: يا أبو سعيدٍ! قال: «كَسْبُ الدّوانيقِ[26] شغلكَ أنْ تقولَ: يا أبا سعيدٍ!»[27].

ومِن الآثارِ السيِّئةِ للّحنِ ما رواه البيهقيّ - أيضًا - عن محمّدِ بنِ الفَضْلِ حدّثني الرِّياشِيّ قال: «مرّ الأَصْمَعيُّ برَجُلٍ يدعُو ويقولُ - في دعائِه -: يا ذُو الجلالِ والإكرامِ! فقال له الأَصْمعيّ: «يا هذا! ما اسمُكَ؟ فقالَ: لَيْثٌ، فقال الأَصْمَعيّ:

يُنــاجِي ربَّــهُ باللَّحنِ لَيْــثٌ
لِذاك إذا دعاهُ لا يُجيبُ»[28]

بعدَ أن عرفنا هذا كلَّه، كيفَ نرضى إذا تكلّمنا أنْ تكونَ ألسنتُنا مُعوجّةً، وأحدُنا لا يرضى أنْ يكونَ الحذاءُ الذي في رجلِه إلاّ في نهايةِ الحُسنِ والبهاءِ والجمالِ؟! وأيُّ عُضوٍ أَولى بأنْ يُحفظَ من الزّللِ مِن اللّسان الذي كرّمهُ اللّه تعالى، إذْ أنطقَهُ بتوحيدِه؟!»[29].

---

(20) «نضرة الأغريض في نصرة القريض» (ص3).

(21) انظر «الجامع لأخلاق الرّاوي» (1073).

(22) وهي الّتي تُعلّق على رأسه.

(23) انظر «الجامع لأخلاق الرّاوي» (1074).

(24) وهذا مِن اللّحن الشّائع عندنا، فيُنادي بعضُ النّاس المستقيمَ من المسلمين به، فيقول: «أَخينا!» والصّواب: «أَخَانا!» بحذف حرف النّداء، والتّقدير: «يَا أَخَانا!».

(25) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (195/19).

(26) جمع دَانِق - بفتح النُّون وكسرها - مِن الأوزان: وهو سُدُس الدِّرهم والدِّينار.

(27) «شُعَب الإيمان» (1563).

(28) «شُعَب الإيمان» (1565).

(29) انظر: «اتّفاق المباني وافتراق المعاني» لتقيّ الدِّين المصريّ (ص138).



وَالعَجبُ - الذي لا يكادُ ينقضِي - مِنْ أُناسٍ لا يَعلمُ أحدُهم مِن عِلمِ العربيّةِ إلاّ اسمَه، ولا مِن النّحوِ إلا رسمَه، بل إنّه قد لا يَستطيعُ أنْ يُركّبَ جملةً تركيباً صحيحاً، ولا يقدرُ على ضبطِ الكلماتِ بالشّكلِ على الصّوابِ، ثمّ يتسوّرُ المراقي، فيدّعي العلمَ، ثمّ تراهُ يُمطِرُ على كلِّ مَن خالفَهُ بوابلٍ من السِّبابِ والشّتائمِ، وهو يحسبُ أنّه يُحسنُ صُنعاً؛ وتأمّلْ معي - رعاكَ اللهُ - في هذه الواقعةِ واعتبرْ؛ فعنِ العبّاسِ بنِ المغيرةَ بنِ عبدِ الرّحمنِ عن أبيهِ قالَ: «جاءَ عبدُ العزيزِ الدَّرَاوَرْدِيُّ في جماعةٍ إلى أبي ليعرضُوا عليه كتاباً، فقرأهُ لهم الدَّرَاوَرْدِيُّ، وكانَ رَديءَ اللّسانِ، يَلْحَنُ لحناً قبيحاً، فقالَ أبي: ويحكَ يا دَرَاوَرْدِيُّ! أنتَ كنتَ إلى إصلاحِ لسانِكَ قبلَ النّظرِ في هذا الشّأنِ أحوجَ منكَ إلى غيرِ ذلك»[30].

وأُنبِّهُ - في الختامِ - على أمرٍ مُهمٍّ، وهو أنَّ دراسةَ النّحوِ ومَعرفةَ قواعدِه ليس مَطلوباً لذاتِه، بل هو وَسيلةٌ لغايةٍ كُبرى وهي تقويمُ اللّسانِ، وضبط التّعبيرِ.

ومِن الخطإِ البيِّنِ أنْ نقصرَ الاهتمامَ على دراسةِ النّحوِ دونَ تطبيقٍ لقواعدِه، وضبطٍ للكلماتِ ضبطاً صحيحاً.

ولَمّا قلَّ أنْ يجتمِعَ في طالبِ العلمِ - اليومَ - تمكُّنٌ في النّحوِ وفي العلومِ الشّرعيةِ، فيَكفيه أنْ يأخذَ مِن اللّغةِ العربيّةِ ما يُقوِّمُ به لسانَه، ويَصونُه عن الخطإِ، وإنْ لم يَغُصْ في دقائقِها، ويتعمّقْ في مسائلِها.

◊ **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:**

«ومعلوم أنَّ تعلُّمَ العربيَّة، وتعليمَ العربيَّة فرضٌ على الكفاية، وكان السَّلف يؤدِّبون أولادَهم على اللَّحْنِ؛ فنحن مأمُورون أمرَ إيجاب أو أمرَ استحباب أن نحفَظ القانونَ العربيَّ، ونُصلِحَ الألسُنَ المائلةَ عنه، فيحفظ لنا طريقةَ فهْمِ الكتاب والسُّنَّة، والاقتداء بالعرب في خِطابها؛ فلو تُرِك النَّاس على لحنهم كان نقصًا وعيبًا؛ فكيف إذا جاء قومٌ إلى الألسنة العربيَّةِ المستقيمةِ، والأوزانِ القويمةِ فأفسدُوها بمثلِ هذه المفرداتِ، والأوزانِ المفسِدَة للِّسان النَّاقلة عن العربيَّة العرباء إلى أنواع الهذيان الَّذي لا يَهذِي به الأقومُ من الأعاجم الطَّماطِم الصُّمْيَان».

[«مجموع الفتاوى» (32/ 252)]

(30) انظر «سير أعلام النّبلاء» للذّهبي (8/ 368).

قصيدة شعرية

محمد بوسلامة

هذه قصيدة قلتها معزيا ومسليا لصاحبنا الدكتور الفقيه عبد المجيد جمعة في مصابه بأصغر أولاده عبد الرحيم الأغر، وهي قصيدة قلتها في مقام التعزية وإنا لله وإنا إليه راجعون

ألا سَلِّ عنكَ الهمَّ سلوةَ عازمٍ ... لدَى المؤلماتِ الموجِعاتِ الصَّوارمِ

فإنَّك مِنْ قومٍ تسَامَوْا بعَزْمِهِمْ ... وإنَّ البَلاَ يأتي بقَدْرِ العزائمِ

وللدَّهر طَوْرًا في الأنام حلاوةٌ ... وطورًا له فيهم مَذاقُ العلاقمِ[1]

فلا يأمنُ الأيَّامَ إلاَّ مُغَمَّرٌ[2] ... جهولٌ بأنَّ البيدَ أرضُ الأراقمِ[3]

ولكنَّ أهلَ العلمِ والعزمِ والنُّهى ... بصائرُهم نورٌ لدى كلِّ[4] عاتمِ

إليك أيا عبدَ المجيد قصيدتي ... وما كنتُ قبلاً في العزَاءِ بناظمِ

ولكنَّني لَمَّا أتيتُ عشيَّةً ... أعزِّيك في حِبٍّ جميلِ المباسِمِ

رأيتُ محيَّاك الكريمَ محزَّنًا ... يبوحُ بوجدٍ من صبورٍ مُكاتِمِ

فهاج عليَّ الحزن من كلِّ جانبٍ ... فكان له بَثٌّ بهاذي المراقمِ

---

(1) العلاقم: جمع علقم: الحنظل، طعمه مرّ.

(2) من لم يجرِّب الأمور

(3) الأراقم: جمع أرقم من أخبث الحيات.

(4) العاتم: الليل.



فإن تَكُ محزونَ الفواد مُؤرَّقًا بلَيْلٍ طويلٍ لستَ فيه بنائمِ
تناجي به الأطيافَ والقلبُ والهٌ وعيناك تَهْمِي بالدُّموع السَّواجمِ
فإنَّك بـ«القَطَّار»[5] أغْرَسْتَ غرسةً تنال جنَاها في جنان المكارم[6]
وللنَّاس في خير البريَّةِ أسوةٌ إذا ما بدَا يومٌ غيرُ باسمِ
فقد مات إبراهيم حِبُ محمَّدٍ فلاقَى به حزنًا نبيُّ المراحم
فسلَّمَ للرَّحمان في أمرِ حُكمِه وأرضى بقولِ الحقّ ربَّ العوالم
وما تصنعُ الأيَّام في قلبِ مؤمنٍ يَرَى مِحْنَةَ الايام مِنحةَ غانمِ
وإنَّك إذ تُبْلَى الرِّجالُ لعالمٌ بصيرٌ بصَرفِ الدَّهرِ عالي الشكائمِ
فقيهٌ لبيبٌ في دماثةِ ماجدٍ له قد سما بيتٌ عزيزُ الدعائمِ
وقلْ للَّتي بَاتَتْ تُبَكِّي[7] وليدَها وفي قلبها من مَوتِهِ حَرُّ جاحمِ[8]
تراجعُ أمرًا قدرَ اللهُ فعلَه وقد زادَها حزنًا ملامةُ لائمِ
ألاَ هَوِّني عنكِ المُصابَ بحِسبَةٍ تَرَيْنَ لها فضلاً لربِ المكارم
فكم مرأةٍ مات الوليدُ بحِضنها ولم يكُ منها الحِضْنُ يومًا بعاصمِ
وكم مرأةٍ جدَّت بربطِ وليدِها فما صدَّ عنه الموتَ ربطُ المحازم
فصبرٌ جميل ذُخركم آل جُمْعَةٍ وإنَّ جميلَ الصبر حَلْيُ الأكارم
سقى اللهُ يا عبدَ الرحيمِ لكَ الثرى وفاضَ عليك الرُحْمُ فَيضَ الغَمائم

(5) اسم مقبرة بالجزائر العاصمة
(6) هذا من باب الدُّعاء ورجاء الخير [التحرير]
(7) تبكي: تبكي عليه.
(8) الجاحم: الجمر الملتهب.

دور المسجد
في تربية الأبناء

د.وسيلة حماموش
المدية

الأسرة المسلمة هي اللَّبنة الأولى في بناء المجتمع، فلابدَّ من تكوينها التَّكوين السَّليم والسَّديد؛ لذلك على المسلم أن يختار البيئة المناسبة ليترعرع أفرادها وينشؤوا فيها، وأبرز من يحتاج إلى اهتمام وتوفير البيئة المناسبة له هم الأولاد، ليتربَّوْا التَّربية الصَّحيحة وينشؤوا النَّشأة الصَّالحة.

لكن أين توجد هذه البيئة وأنَّى له بها في زمن عَجَّ بالفساد يتهاطل من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ؟

ما أصعب الإجابة على هذا السُّؤال! الحمد لله أنْ هدانا لأقوم سبيل وأحسن طريق، فإنَّنا لن نجد الإجابة إلاَّ إذا عدنا إلى منهج النُّبوَّة وطريق الرِّسالة الحقّ، طريق نبيِّنا ﷺ وصحبه ومن اهتدى بهديه.

فإنَّ أوَّل عمل بدأ به النَّبيُّ ﷺ عند نزوله المدينة لبناء أوَّل مجتمع هو بناء المسجد، وبعدها شرع تدريجيًّا في تبليغ رسالته التي تكوِّن المجتمع وتربِّيه، وسنرى دور المسجد في تربية المسلم في مرحلة عمره الأولى وهو طفل؛ ليتبيَّن لنا أهمِّية تعليم الأطفال رسالةَ المسجد.

*** أول عمل للنَّبيِّ ﷺ لبناء المجتمع المسلم «بناء المسجد»:**

أوَّل خطوة خطاها الرَّسول ﷺ بعد نزوله المدينة إقامة المسجد النَّبوي لتظهر فيه شعائر الإسلام التي طالما حُورِبَتْ، ولتُقام فيه الصَّلوات الَّتي تربط المرْءَ بربِّ العالمين وتُنَقِّي القلبَ من أدرانه.

فالمسجد من أقوى الأركان والدَّعائم في بناء المجتمع المسلم، وعلى هذا سار نبينا ﷺ والسَّلف الصَّالح من بعده جميعًا، فكان المسجد هو موطن التَّربية الإيمانية والرُّوحيَّة والخلقيَّة والعلميَّة للطِّفل في مراحل تربيته ونشأته كما سنبيِّن ذلك في «حرص السَّلف على تعويد أولادهم المسجد».

*** عناية السَّلف بتعويد الصِّبيان ارتياد المساجد:**

ثبت عن النبي ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يَؤُمُّ النَّاس وأمامة بنت أبي العاص وهي ابنة زينب بنت النَّبيِّ ﷺ على عاتقه فإذا ركع وضعها وإذا رفع من السُّجود أعادها»[1]، وهذا دليل على أنَّه

(1) «صحيح مسلم» (543).

كان في صلاة الجماعة في المسجد.

وثبت عن الصحابة رضي الله عنهم عنايتهم بتدريب الأطفال على فعل الطّاعات ومن ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» عن الرُّبيِّع بنت معوّذ ابن عفران رضي الله عنها، والشّاهد منه: «ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللُّعبة من العهن»[2].

قال النّوويُّ مبيِّنًا ما يستفاد من الحديث: «وفي هذا الحديث تمرين الصِّبيان على الطّاعات وتعويدهم العبادات؛ ولكنَّهم ليسوا مكلّفين»[3].

كما أُثِرَ عنهم رضي الله عنهم حرصهم على مشاركة صبيانهم في الطّاعات، منها ارتياد المساجد وتمرينهم وتعويدهم على ذلك، وممَّا يدلُّ على ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» في كتاب العيدين، باب خروج الصِّبيان إلى المصلّى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «خرجت مع النَّبيِّ ﷺ يوم فطر أو أضحى فصلَّى ثمَّ خطب ثمَّ أتى النِّساء فوعظهن وذكَّرهنَّ وأمرهن بالصَّدقة»[4].

قال العيني: «مطابقته للتَّرجمة من حيث إنَّ ابن عباس رضي الله عنهما كان وقت خروجه مع النَّبيِّ ﷺ إلى صلاة العيد طفلا»[5].

كما ترجم الإمام البخاري في «صحيحه» بابًا آخر بقوله: «باب وضوء الصِّبيان ومتى يجب عليهم الغسل والطُّهور وحضورهم الجماعة والعيدين والجنائز وصفوفهم».

من خلال هذه النُّصوص يتبيَّن لنا حرص السَّلف، بل أمر أطفالهم بالطّاعات ومنها ارتياد المساجد ليعتادوا ذلك ويتهيَّؤوا له قبل البلوغ، حتَّى إذا بلغوا كان الأمر سهلاً عليهم.

*** خطرُ وخطأُ منع الصِّبيان المساجد اعتمادًا على أحاديثَ لا تصحُّ:**

وممَّا يجدر التَّنبيه إليه اعتماد المسلمين في منع صبيانهم ارتياد المساجد على أحاديث ضعيفة، منها حديث واثلة بن الأسقع أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «جنِّبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم...» الحديث، وهو ضعيف كما في «ضعيف ابن ماجه» برقم (164).

وسئلت «اللَّجنة الدَّائمة» عن حكم دخول الأطفال والمجانين المسجد فكان الجواب:

«على وليِّ أمر المجنون منعه من دخول المسجد دفعًا لأذاه عن المسجد والمصلّين والسَّعي في علاجه، أمَّا الأطفال فلا يمنعون من دخول المسجد مع أولياء أمورهم أو وحدهم إذا كانوا مميِّزين، وهم أبناء سبع سنين فأكثر ليؤدُّوا الصَّلاة مع المسلمين»[6].

وممَّا يدلُّ على جواز إدخال الصِّبيان المساجد ما ورد في «الصَّحيحين» أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يريد تطويل الصَّلاة فيسمع بكاء الصَّبيِّ فيخفِّف، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ**

(2) «صحيح مسلم» (1136).
(3) «شرح مسلم» (262/8).
(4) «صحيح البخاري» (975).
(5) «عمدة القارئ» (297/2).
(6) «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة» (278/6).

فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ»[7]، وهذا يدلُّ على مشروعية ارتياد الصِّبيان المسجد.

قال النَّوويُّ: «وفيه جواز صلاة النِّساء مع الرِّجال في المسجد وأنَّ الصَّبيَّ يجوز إدخاله المسجد وإن كان الأولى تنزيه المسجد عمَّن لا يؤمن منه حدث»[8][9].

كما ترجم البخاري في «صحيحه» من كتاب الأذان: باب من أخفَّ الصَّلاة عند بكاء الصبي[10].

*** وجوب تعريف الآباء والأمَّهات الأبناء فضل وآداب وأخلاق المسجد:**

على الوليِّ أن يعمل على ربط أولاده ببيوت الله - عزَّ وجلَّ - ليتربَّوا في رحابها، فتُهَذَّب أرواحهم وتثقَّف عقولهم وتَزْكُوَ نفوسُهم، ولكي يرغِّبهم في ذلك عليه أن يبيِّن لهم فضائل المسجد ودوره، وإنَّ هذا الأمر - أي دور المسجد - أصبح من الأمور المهملة في زماننا ممَّا جعل المسجد يفقد دوره ومكانته في تربية الأجيال، فلا تكاد تجد مسجدًا قائمًا على ما يجب أن يتوم عليه إلاَّ ما شاء الله، فأدَّى ذلك إلى انصراف الكثير من النَّاشئة عنه إلى أماكن اللَّهو والفساد.

أ - فضائل المسجد:

إذا علمت أيُّها الوليُّ المسلم - رحمني الله وإيَّاك - تاريخ وأمجاد السَّلف في تربية ناشئتهم ورعايتهم على فعل الخيرات والتَّعوُّد عليها، عليك أن تعرف طرق ووسائل تشحذ بها همَّة ولدك لتدفعه إلى خير البقاع وهي المساجد، وليعرف قيمة المكان ويولي له الاهتمام ويتحلَّى بالآداب ويرتبط به قلبُه لينشأ على الخير ويبتعد عن الشَّرِّ، فما عليك إلا أن تنقل له - بأسلوب مُيسَّر يفهمه - تلك الجملة الطيبة من فضائل المسجد منتقاة من سنة خير البرية تغذي بها فكر فلذة كبدك وتعظه بها الفترة بعد الأخرى لتكون له ذكرى ينتفع بها ويغذي بها همته ويقوي عزيمته ليقبل على بيوت الله.

ب - حقيقة المسجد ودوره:

المسجد هو مرجع المسلم ومتقلَّبه، فهو الَّذي يغذِّي الإسلام في نفسه لما يتردَّد عليه خمس مرَّات في اليوم واللَّيلة وبما يسمعه فيه من قرآن وخطب ودروس، وهو الَّذي يكوِّنه ويوجِّهه بما يصبغه به من ألوان ثابتة، وبما يفيض عليه من روحانيَّة قويَّة، وبما يغشي في جوانبه من فضائل أصيلة، وبما يشبع دخائله من أنوار وهَّاجة وبما يغرسه فيه من آمال شريفة، وبما يطبعه عليه من أخلاق، وبما يخطُّه من سبل للسَّعادة، وبما يركِّبه فيه من استعداد للعزَّة والسِّيادة[11].

ولذلك فإنَّه ممَّا ينبغي على الوليِّ أن يرسِّخ في تكوين الطِّفل الفكري حقائق عليها يبني مستقبله وليس له مثل ربطه بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ففيه بيان لكلِّ الحقائق، فقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ

(7) «صحيح البخاري» (709 - 710)، «صحيح مسلم» (470).

(8) قُلْتُ: قد أزيل هذا العائق في زماننا بحفاظات الصِّبيان، والحمد لله.

(9) «شرح مسلم» (432/4).

(10) انظر: (173/1).

(11) «عيون البصائر» للإبراهيمي: (ص160).

القصد من رفع المساجد فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38)﴾ [النور: 36 ـ 38].

ذكر ابن كثير في «تفسيره» لهذه الآيات لطيفة جميلة جدًّا تبيّن الحقيقة العظمى لوجود المسجد في المجتمع فقال: «لمَّا ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن[12] وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزُّجاجة الصَّافية المتوقّد من زيت طيِّب وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلَّها وهي المساجد الَّتي هي أحبُّ البقاع إلى الله من الأرض وهي بيوته الَّتي يعبد فيها ويوحَّد»[13].

آية ترسم صورة كاملة للبيئة بإنسانها وأفكارها وعاداتها وتضعها في إطار موشَّى بالجمال والحبِّ أمام عين المؤمن ليصفها لولده ويشوِّقه إلى ارتيادها في كلِّ وقت ينادى فيه للصَّلاة أو يتداعى النَّاس لعلم عالم.

والمسجد هو البؤرة الإيمانية الَّتي تستقطب كلَّ البيئات من حولها وتعكس عليها جمالها وخيرها، فيكون المسجد هو كلّ بيئة، وتكون كلّ بيئة هو المسجد؛ لأنَّ ما في داخل المسجد من نور وعلم ومعرفة وحبٍّ ومودَّة وصدق وإخلاص وشجاعة وقوَّة وغيرها ستحمل إلى خارج المسجد وتحدث التأثير القويّ في نفوس الَّذين حيل بينهم وبين بيوت الله؛ لأنَّهم يرون في روَّاد المسجد شيئًا محبوبًا يفقدون في قرار نفوسهم فيسرعون إليه قائلين: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]...

فليحرص الأب منَّا إذا على أن يقيم جسرًا قويًّا بين أبنائه وبين المسجد وبخاصَّة في هذا الزَّمان الَّذي أضحى فيه الشَّر عنوان الحضارة وأُسَّ المدنية والوشيجة الواصلة بين الإنسان وبين طموحاته وآماله.

*** المسجد والصَّلاة:**

بعد أن يعرِّف الأب ابنه بحقيقةِ المسجد وفضائله يشحذ الهمَّة ويعقد العزم لأمر ابنه بالصَّلاة، فقد أمر النبي ﷺ بذلك في قوله: «**مُرُوا الصَّبيَّ بالصَّلاَةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَإِذَا بَلَغَ عَشرَ سِنِينَ فَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا**»[14].

قال النَّووي: «واعلم أنَّ قوله ﷺ: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بالصَّلاَةِ» ليس أمرًا منه ﷺ للصَّبيِّ وإنَّما هو أمر للوليِّ، فأوجب على الوليِّ أن يأمر الصَّبي... وهذا الأمر والضَّرب واجب على الوليِّ سواء كان أبًا أو جدًّا أو وصيًّا أو قيِّما من جهة القاضي صرَّح به أصحابنا... ودليل هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾ [طه: 132]،

(12) وهي في تفسيره قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [النور: 35].

(13) «تفسير ابن كثير»: (5/62).

(14) «صحيح أبي داود»: (1/97).

وقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 06]، وقوله ﷺ: «**وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» رواه مسلم في «صحيحه» في كتاب الصِّيام من رواية ابن عمر، وقوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**» رواه البخاري ومسلم.

قال الشَّافعي في «المختصر»: وعلى الآباء والأمَّهات أن يؤدِّبوا أولادهم ويعلِّموهم الطَّهارة والصَّلاة ويضربوهم على ذلك إذا عقلوا، قال أصحابنا: ويأمره الوليُّ بحضور الصَّلوات في الجماعة وبالسِّواك وسائر الوظائف الدِّينيَّة، ويعرِّفه تحريم الزِّنا واللِّواط والخمر والكذب والغيبة وشبهها»[15].

وقال الشَّوكاني: «والحديث يدلُّ على وجوب أمر الصِّبيان بالصَّلاة إذا بلغوا سبع سنين وضربهم عليها إذا بلغوا عشرًا»[16].

وقال ابن حجر في «الفتح»: «وذهب الجمهور إلى أنَّها لا تجب عليه إلاَّ بالبلوغ، وقالوا: الأمر بضربه للتَّدريب»[17].

فائدة: ولا فرق في الأمر بالصَّلاة بين الصَّبيِّ والصبيَّة؛ لأنَّ الحديث عام يشملهما جميعًا، قال النَّووي مستدلاً بحديث: «**مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ**»: «والاستدلال به واضح؛ لأنَّه يتناول بمنطوقه الصَّبيَّ والصَّبيَّة في الأمر بالصَّلاة والضَّرب عليها»[18].

وإذا كان الأمر بالصَّلاة للصِّبيان واجبًا فإنَّ تأديبهم وتعليمهم أحكامَ الصَّلاة أمر لا بدَّ منه بالضَّرورة من طهارة وستر عورة وأدائها في المسجد وغيرها كما ذكرنا في قول النَّووي، وفي ذلك يقول الشَّيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ في تعليقه على كتاب: «حجاب المرأة المسلمة ولباسها في الصَّلاة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «وعلى هذا ينبغي أن يؤدِّب الصِّبيان فلا يجوز لآبائهم أن يلبسوهم السَّراويل القصيرة ـ التبَّان ـ وأن يحضروهم المساجد في هذه الحالة للحديث المتقدِّم: «مُرُوهُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ...»، ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر يشمل أمرهم بشروطها وأركانها أيضًا، فتنبَّه ولا تكن من الغافلين»[19].

وقد ترجم البخاري في «صحيحه»[20] بابًا بقوله: «باب وضوء الصِّبيان ومتى يجب عليهم الغسل والطُّهور وحضورهم الجماعة والعيدين والجنائز وصفوفهم».

وقال ابن حجر في «الفتح» في شرح حديث أنس رضي الله عنه لَمَّا صلَّى النبي ﷺ:

«وفيه تنظيف مكان المصلِّي وقيام الصَّبيِّ مع الرَّجل صفًّا وتأخير النِّساء عن صفوف الرِّجال

(15) «المجموع» (3/ 11).

(16) «نيل الأوطار» (1/ 298).

(17) (2/ 446).

(18) «المجموع» (3/ 10 ـ 11).

(19) (ص 26).

(20) كتاب الأذان: (1/ 208).

وقيام المرأة صفًّا وحدها إذا لم يكن معها امرأة غيرها»[21].

بل يشرع للصَّبيِّ حتَّى الإمامة، وهذا يدلُّنا على اهتمام الإسلام بتربية النَّشء على الصَّلاح والخير، فقد أخرج البخاري في «صحيحه» (4302) من حديث عمرو بن سَلِمَة قال: كنَّا بماء ممرَّ النَّاس، وكان يمرُّ بنا الرُّكبان فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجلُ؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله، أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنَّما يُقَرّ[22] في صدري وكانت العرب تَلَوَّم[23] بإسلامهم الفتح فيقولون: اتركوهُ وقومهُ، فإنَّه إن ظهر عليهم فهو نبيٌّ صادق، فلمَّا كانت وقعة أهل الفتح بادر كلُّ قومٍ بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلمَّا قدم قال: جئتكم والله من عند النَّبيِّ ﷺ حقًّا، قال: صلُّوا صلاة كذا في حين كذا، وصلُّوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصَّلاة فليؤذِّن أحدكم وليؤمَّكم أكثركم قرآنًا، فنظروا فلم يكن أحدٌ أكثرَ قرآنًا منِّي لِمَا كنتُ أتلقَّى من الرُّكبان، فقدَّموني بين أيديهم وأنا ابن ستٍّ أو سبع سنين، وكانت عليَّ بُردة كنتُ إذا سجدتُ تقلَّصت عنِّي، فقالت امرأة من الحيِّ: ألا تغطُّون عنَّا اسْتَ قارئكم؟ فاشتروا فقطعوا لي قميصًا، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص».

قال القرطبي: «قلت: إمامة الصَّغير جائزة إذا كان قارئًا» ثمَّ ساق الحديث[24].

* المسجد والتَّعليم:

المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهوره، فما بنى النَّبيُّ ﷺ يوم استقرَّ في دار الإسلام بيته حتَّى بنى المسجد، ولمَّا بنى المسجد كان يقيم الصَّلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتَّعليم كارتباطه بالصَّلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة، كذلك لا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصَّلاة، فلا إسلام بدون تعليم، ولهذه الحاجة مضى النَّبيُّ ﷺ على عمارة المسجد بهما، فما انقطع عمره كلّه عن الصَّلاة وعن التَّعليم في مسجده حتَّى في مرضه الَّذي توفِّي فيه[25].

وهذا هو التَّوجيه الَّذي يجب على أولياء الأمور أن يبنوا عليه أفكار أبنائهم إذ أنَّ نظرتهم اليوم للطِّفل لا تعدو أن تكون نظرة مبنيَّة على الطَّيش واللَّهو واللَّعب تاركين إيَّاه على ذلك الحال، وإنَّ من له اطِّلاع على سيرة السَّلف وأطفالهم يرى العجب في مراعاتهم بربطهم بالمسجد والعلم وعنايتهم بذلك عناية شديدة ولفتهم إلى أسبابه، وأقواها التَّلقِّي والاجتماع عليه، والمداومة، وما ذلك إلاَّ في

(21) «فتح الباري» (490/1).

(22) بقاف مفتوحة من القرار، وفي رواية بألف مقصورة، أي يجمع، أو بهمزة من القراءة، وفي رواية: «يغرى» أي يلصق.

(23) تنتظر.

(24) انظر: «تفسير القرطبي» (353/1).

(25) «آثار عبد الحميد بن باديس» (94/4).

المسجد، فقد قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور: 36] الآية، والذِّكر بمعناه العام العلم، وأوَّل مصدر له كتاب الله تعالى كما جاء في «تفسير ابن كثير»: «يذكر فيها اسمه» قال ابن عبَّاس: «يتلى فيها كتابه».

وأخرج البخاري في «صحيحه» من رواية ابن عبَّاس عن نفسه رضي الله عنه فقال: «توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم»[26].

وقد ترجم لها البخاري في «صحيحه»: «باب تعليم الصِّبيان القرآن».

وهذا عبد الله بن الزُّبير أوَّل مولود للمهاجرين بالمدينة وله صحبة ورواية أحاديث عِدَادُه في صغار الصَّحابة وإن كان كبيرًا في العلم والشَّرف والجهاد والعبادة[27].

وغيرُ هذا كثيرٌ في حياة السَّلف حفظت لنا سيرهم الكثير في حرصهم على العلم منذ الطُّفولة، وما ذاك إلاَّ بثني الرُّكب في المساجد وقضاء نفيس الأوقات فيها.

وقد بوَّب البخاري في «صحيحه»: «باب متى يصح سماع الصغير»، قال ابن حجر في «الفتح»: «قوله: «باب متى يصحُّ سماع الصغير» - زاد الكشميهني «الصَّبي الصَّغير» - ومقصود الباب الاستدلال على أنَّ البلوغ ليس شرطًا في التَّحمُّل، وقال الكرماني: إنَّ معنى الصِّحة هنا جواز قبول مسموعه، قلت: وهذا تفسير لثمرة الصِّحة لا لنفس الصِّحة، وأشار المصنِّف بهذا إلى اختلافٍ وقع بين أحمد بن حنبل ويحيى ابن معين رواه الخطيب في «الكفاية» عن عبد الله ابن أحمد وغيره أنَّ يحيى قال: أقلُّ سنِّ التَّحمُّل خمس عشرة سنة لكون ابن عمرَ رُدَّ يوم أحد إذ لم يبلغها، فبلغ ذلك أحمد فقال: بل إذا عقل ما يسمع وإنَّما قصَّة ابن عمر في القتال، ثمَّ أورد الخطيب أشياء ممَّا حفظها جمع من الصَّحابة ومن بعدهم في الصِّغر وحدَّثوا بها بعد ذلك وقبلت عنهم، وهذا هو المعتمد»[28].

وقد أورد البخاري في «صحيحه» (77) تحت نفس الباب عن محمود بن الرَّبيع قال: «عقلت من النَّبيِّ ﷺ مجَّة مجَّها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو»، قال ابن حجر في «الفتح»: «وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدَّم، جواز إحضار الصِّبيان مجالس الحديث، وزيارة الإمام أصحابه في دورهم ومداعبته صبيانهم، واستدلَّ به بعضهم على تسميع من يكون ابن خمس ومن كان دونها يكتب له حضور، وليس في الحديث ولا في تبويب البخاري ما يدلُّ عليه، بل الَّذي ينبغي في ذلك اعتبار الفهم، فمن فهم الخطاب سمع، وإن كان دون ابن خمس وإلاَّ فلا، وقال ابن رشيد: «الظَّاهر أنَّهم أرادوا بتحديد الخمس أنَّها مظنَّةٌ لذلك لا أنَّ بلوغها شرط لا بدَّ من تحقُّقه والله أعلم»، وقريب منه

(26) رواه البخاري (5035).

(27) «سير أعلام النُّبلاء» (3/360).

(28) «فتح الباري» (1/171).

ضبط الفقهاء سنَّ التَّمييز بستٍّ أو سبعٍ، والمرجّح أنَّها مظنَّة لا تحديد، ومن أقوى ما يتمسَّك به في أنَّ المردَّ في ذلك إلى الفهم فيختلف باختلاف الأشخاص ما أورده الخطيب من طريق أبي عاصم قال: ذهبت بابني ـ وهو ابن ثلاث سنين ـ إلى ابن جريج فحدَّثه، قال أبو عاصم: ولا بأس بتعليم الصَّبيِّ الحديث والقرآن وهو في هذا السِّنِّ، يعني إذا كان فَهِمًا، وقصَّة أبي بكر ابن المقري الحافظ في تسميعه لابن أربعٍ بعد أن امتحنه بحفظ سور من القرآن مشهورة»[29].

وهذه نصيحة ثمينة من الإمام ابن باديس رحمه الله في الحرص على تلقّي العلم في المساجد وتربية الأبناء على ذلك فقال: «إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم، فإنَّ العامَّة الَّتي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظٍّ وافر، وتتكوَّن منها طبقة مثقَّفة الفكر، صحيحة العقيدة، بصيرة بالدِّين، فتكمل هي في نفوسها ولا تهمل ـ وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته ـ تعليم أبنائهم، وهكذا ينتشر العلم في الأمَّة ويكثر طلاَّبه من أبنائها»[30].

◆ وجوب تعليم الطفل آداب المسجد:

وذلك لأنَّ الحياة في المسجد لا تكمل إلاَّ مع حرص أولياء الأمور بتربية أبنائهم ورعايتهم وتنبيههم وتعليمهم الآداب والأخلاق الَّتي يجب التَّحلّي بها في بيوت الله تعالى لتصان وترفع عن كلِّ عبث وتبثّ رسالتها على أكمل صورة.

◆ حثٌّ ورجاءٌ:

1. دعوة إلى أئمَّة المساجد لبيان أهميَّة المسجد وحثّهم الآباء لتعليم الأبناء فضائل ودور وحقيقة المسجد وآدابه وأخلاقه.

2. دعوة الآباء والأمَّهات وأولياء الأمور إلى رعاية أبنائهم وتعويدهم ارتياد المساجد للصَّلاة وطلب العلم.

3. وضع برامج لتحفيظ الأطفال القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة.

4. اجتماع أعيان الأحياء في المساجد مع الإمام لدراسة السَّير الحسن للمسجد مع الاهتمام بالطّفل ورعايته فيه.

5. حرص الكبار على أن يكونوا قدوة للصّغار في التَّحلّي بآداب المسجد وحسن تلقّي القرآن والعلم فيه.

(29) «فتح الباري» (1/173).

(30) «الشّهاب»: نقلاً عن كتاب «الشَّيخ عبد الحميد بن باديس» لتركي رابح: (ص295).

تنبيهات على مخالفات في الدعاء

عمر الحاج مسعود

إنَّ الدُّعاء هو أُسُّ العبادة ولبُّها وحقيقتُها؛ لأنَّ فيه توجُّهَ الدَّاعي إلى ربِّه الغنيِّ الحميد، وحسنَ ظنِّه به، وافتقاره إليه، والتَّذلُّل والخضوع له، وإنزال حوائجه به، والرَّغبة فيما عنده، فهو حقٌّ للَّه عز وجل، قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ، ثمَّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾**»[1].

وقد جاءت السُّنَّة الشَّريفة حافلةً ببيان الأذكار والأدعية المشروعة في الصَّلوات وسائر العبادات والأحوال والمناسبات، موضِّحةً لكيفيَّاتها وشروطها وآدابها أحسنَ توضيح وأكمله.

ولا يخفى أنَّ العبادة لا تقبل إلاَّ بشرطين اثنين هما: الإخلاص للَّه تعالى، والمتابعة للرَّسول ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لاَ رَيْبَ أَنَّ الأَذْكَارَ وَالدَّعَوَاتِ مِنْ أَفْضَلِ العِبَادَاتِ؛ وَالعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى التَّوْقِيفِ وَالاتِّبَاعِ، لا عَلَى الهَوَى وَالابْتِدَاعِ، فَالأَدْعِيَةُ وَالأَذْكَارُ النَّبَوِيَّةُ هِيَ أَفْضَلُ مَا يَتَحَرَّاهُ المُتَحَرِّي مِنْ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ، وَسَالِكُهَا عَلَى سَبِيلِ أَمَانٍ وَسَلامَةٍ، وَالفَوَائِدُ وَالنَّتَائِجُ الَّتِي تَحْصُلُ لا يُعَبِّرُ عَنْهُ لِسَانٌ وَلا يُحِيطُ بِهِ إِنْسَانٌ»[2].

إنَّ الخير والبركة في اتِّباع أدعية وأذكار الوَحْيَيْن، إذ هي «مباركة؛ لأنَّها تجمع سناء التَّوحيد وبركة الاتِّباع ونقاوة اللُّغة، وظهور معانيها في مفرداتها وتراكيبها»[3]، فينبغي الحرص عليها ما استطاع الدَّاعي إليها سبيلاً.

وكان النَّبيُّ ﷺ يعلِّم أصحابه الدُّعاء، ويلقِّنهم إيَّاه، بل كان ﷺ ينهاهم عن تغيير لفظه؛ حمايةً لهذه العبادة وصيانةً لها من الزِّيادة والنُّقصان، فعن البَرَاء بن عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ؛ فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، [وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ]**[4]، **وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي**

(1) رواه أحمد (4/276)، والتِّرمذي (2969)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (3407).

(2) «مجموع الفتاوى» (22/510 ـ 511).

(3) «تصحيح الدُّعاء» لبكر أبو زيد (ص9).

(4) رواية للبخاري (6313) ومسلم (2710).

أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ؛ فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ، فَقُلْتُ: أَسْتَذْكِرُهُنَّ وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: **لا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[5].

فلم يرضَ - عليه الصَّلاة والسَّلام - استبدالَ لفظة «الرَّسول» بلفظة «النَّبيِّ»، مع أنَّ معناهما متقارب، فكيف بالَّذي يزيد في المأثور أو ينقص منه؟!

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وأَوْلَى ما قيل في الحكمة في ردِّه ﷺ على من قال «الرَّسول» بدل «النَّبيِّ»؛ أنَّ ألفاظ الأذكار توقيفيَّة ولها خصائص وأسرار لا يدخلها القياس، فتجب المحافظة على اللَّفظ الَّذي وردت به، وهذا اختيار المَازِري، قال: فيقتصر فيه على اللَّفظ الوارد بحروفه»[6].

وقال الألباني رحمه الله: «فيه تنبيه قويٌّ على أنَّ الأوراد والأذكار توقيفيَّة، وأنَّه لا يجوز فيها التَّصرف بزيادة أو نقص، ولو بتغيير لفظ لا يفسد المعنى، فإنَّ لفظ «الرَّسول» أعمُّ من لفظة «النَّبيِّ»، ومع ذلك ردَّه النَّبيُّ ﷺ، مع أنَّ البراء رضي الله عنه قاله سهوًا لم يتعمَّده! فأين منه أولئك المبتدعة الَّذين لا يتحرَّجون من أيِّ زيادة في الذِّكر، أو نقص منه؟! فهل منْ مُعْتَبِر؟

ونحوهم أولئك الخطباء الَّذين يبدِّلون من خطبة الحاجة زيادةً ونقصًا، وتقديمًا وتأخيرًا، فَلْيَنْتَبِه لهذا منهم من كان يرجو الله والدَّار الآخرة»[7].

وعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنْ القُرْآنِ، يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ**»[8].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ كَمَا يُعَلِّمُهُمْ السُّورَةَ مِنْ القُرْآنِ يَقُولُ قُولُوا: **اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالْمَمَاتِ**»[9].

فقوله رضي الله عنه: «كان يعلِّمهم هذا الدُّعاء كما

(5) البخاري (6311) ومسلم (2710).
(6) «فتح الباري» (112/11)، وانظر: «المعلم بفوائد مسلم» للمازري (330/3).
(7) هامش «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (388/1).
(8) البخاري (1162، 6382).
(9) مسلم (590).

يعلّمهم السُّورة من القرآن»، «دليل على تأكُّده وما ندب إليه من تحفُّظ ألفاظه»[10].

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - وَكَفِّي بَيْنَ كَفَّيْهِ - التَّشَهُّدَ كَمَا يُعَلِّمُنِي السُّورَةَ مِنْ الْقُرْآنِ: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَهُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا، فَلَمَّا قُبِضَ قُلْنَا: السَّلامُ - يَعْنِي - عَلَى النَّبِيِّ ﷺ»[11].

وهذا حرصٌ شديد، واعتناءٌ أكيد من النَّبيِّ ﷺ على تعلُّم الدُّعاء المأثور، «ومنع الزِّيادة والنَّقص منه»[12]، يوضِّحُه قولُ الصَّحابيِّ ﷺ: «كما يعلِّمنا السُّورة من القرآن»، ومعلوم أنَّ القرآن يُقرأ كما أُنزل من غير زيادة ولا نقصان.

وفي هذا المقال أحببت أن أنبِّه على بعض الأدعية المأثورة، الَّتي دخلها الاعتداء بزيادات وتغييرات صارت مشهورة، وظنَّها الكثيرُ من النَّاس مأثورة وما هي بمأثورة، وقد تكون أدعية جائزة لا بأس بها، لكن إلصاقها بالدُّعاء النَّبويِّ مع المواظبة عليها هو الممنوع.

فالمقصود - إذًا -: التَّنبيه على عدم ثبوتها في اللَّفظ النَّبويِّ، لا على أنَّه لا يجوز الدُّعاء بها، فربَّما يكون الدَّاعي غير مستحضر للمأثور، أو ناسيًا بعض كلماته، وقد يُدخِل دعاء في آخر، فهذا لا حرج فيه مادام معناه مستقيمًا، كما يجوز له - وبخاصَّة عند الحاجة - أن يدعوَ ربَّه بما شاء من الكلام المقبول شرعًا ولو لم يكن مأثورًا، لكن إن وجد بُغْيَته في المأثور - وهو واجدها - فذلك أفضل وأولى.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَسُنَّ لِلنَّاسِ نَوْعًا مِنْ الأَذْكَارِ وَالأَدْعِيَةِ غَيْرِ المَسْنُونِ وَيَجْعَلَهَا عِبَادَةً رَاتِبَةً يُوَاظِبُ النَّاسُ عَلَيْهَا كَمَا يُوَاظِبُونَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ؛ بَلْ هَذَا ابْتِدَاعُ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِهِ؛ بِخِلافِ مَا يَدْعُو بِهِ المَرْءُ أَحْيَانًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجْعَلَهُ لِلنَّاسِ سُنَّةً؛ فَهَذَا إذَا لَمْ يُعْلَمْ أَنَّهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى مُحَرَّمًا لَمْ يَجُزْ الجَزْمُ بِتَحْرِيمِهِ؛ لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ ذَلِكَ وَالإِنْسَانُ لا يَشْعُرُ بِهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الإِنْسَانَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ يَدْعُو بِأَدْعِيَةٍ تُفْتَحُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الوَقْتَ، فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ قَرِيبٌ»[13].

وقد قال النَّبيُّ ﷺ ناصحًا ومحذِّرًا: «سَيَكُونُ بَعْدِي قَوْمٌ مِنْ **هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ**»[14]، والاعتداء يرجع إلى «تجاوز في الشَّيء وتقدُّم لِما ينبغي أن يُقتصر عليه»[15]، وهو أنواعٌ كثيرة بيَّنها أهل العلم - رحمهم الله -، وكلُّ «مخالفة للسُّنَّة، ومفارقةٍ للهدي النَّبوِّي الكريم في الدُّعاء يعدُّ اعتداءً»[16].

(10) «المنتقى» للباجي (358/1).

(11) البخاري (6265) ومسلم (402).

(12) انظر: «فتح الباري»: (184/11).

(13) «مجموع الفتاوى» (511/22).

(14) رواه أحمد (87/4)، وأبو داود (9)، وغيرهما، وهو صحيح، انظر: «صحيح الجامع» (2396).

(15) «معجم مقاييس اللُّغة» لابن فارس (249/4).

(16) «فقه الأدعية والأذكار» لعبد الرَّزَّاق البدر (327/1).

❖ من هذه الأدعية:

1. دعاء القنوت الَّذي علَّمه النَّبيُّ ﷺ ريحانته الحسنَ بن علي رضي الله عنهما، فعنه قال: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي قُنُوتِ الوِتْرِ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ؛ فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلاَ يُقْضَى عَلَيْكَ، وإِنَّهُ لاَ يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلاَ يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وتَعَالَيْتَ**».

أخرجه أحمد (1/200)، وأبو داود (1425)، والنَّسائي (1745)، والتِّرمذي (464)، وابن ماجة (1178)، والدَّارمي (1593)، وابن خزيمة (1095)، وابن حبَّان (945)، والطَّبراني في «الكبير» (2701)، والحاكم (3/172)، والبيهقيُّ (2/209)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (374)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (429).

كلُّ هؤلاء وغيرهم ـ رحمهم الله ـ رَوَوْهُ باللَّفظ المتقدِّم، وقد لا يَذكر بعضهم كلمةً أو أكثر، لكن بعض الخطباء والأئمَّة أضافوا زيادات منها:

ـ «وقنا واصرف عنَّا شرَّ ما قضيت»، فكلمة: «واصرف عنا» غير ثابتة، ولم تُذكر عند أحد.

ـ «تباركت ربَّنا وتعاليت، لك الحمد على ما قضيت، ولك الشُّكر على ما أعطيت»، فالثَّناء الأخير: «لك الحمد...» لا يثبت في الحديث، وإن ذكره بعض الفقهاء ـ كما في «حاشية قليوبي» (1/178)، و«كشاف القِناع» (1/420)، وغيرهما ـ بلفظ: «لك الحمد على ما قضيت، نستغفرك اللَّهمَّ ونتوب إليك».

ـ «نستغفرك اللَّهمَّ من جميع الذُّنوب والخطايا ونتوب إليك»؛ فهذه كذلك لم تذكر في المراجع المتقدِّمة، لكن وَرَدَ عند ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (415) من طريق آخر في آخر الدُّعاء: «أستغفرك وأتوب إليك»، وهذا الطَّريق غير محفوظ[17]، فالزِّيادة لا تصحُّ؛ لأنَّ إسنادها ضعيفٌ جدًّا؛ فشيخ ابن أبي عاصم: عبد الله بن شبيب ـ وهو أبو سعيد الرّبعي ـ تكلَّم فيه أئمَّة الجَرح والتَّعديل بكلام شديد، قال ابن حبَّان: «يقلِّب الأخبار، ويسرقها، لا يجوز الاحتجاج به»[18].

وقال الذهبي: «أخباريٌّ علاَّمة، لكنَّه واهٍ»[19].

2. عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ لأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلاَ تَجْعَلِ**

(17) انظر: «ظلال الجنَّة» للألباني (1/171).
(18) «المجروحين» (2/47).
(19) «ميزان الاعتدال» (2/438).

الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلاَ مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لاَ يَرْحَمُنَا».

أخرجه ابن المبارك في «الزُّهد» (431)، والتِّرمذي (3502)، وقال: «حسن غريب»، والنَّسائي في «الكبرى» (10234)، وابن السُّنِّي في «عمل اليوم واللَّيلة» (440)، والحاكم (528/1)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وابن أبي الدُّنيا في «اليقين» (2)، والبغوي في «شرح السُّنَّة» (1374)، وهو حديث حسن، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (1268).

هذا الدُّعاء غُيِّرَتْ بعضُ ألفاظه، وأُدْخِلت عليه زياداتٌ لا توجد في شيء من كتب السُّنَّة، منها:

- كلمة «أبدًا» في «أبدًا ما أحييتنا».

هناك من يقول: «ما أبقيتنا» مكان «ما أحييتنا»، وقد تفرَّد بذكرها القاضي عياض رحمه الله في كتابه «الإلماع إلى معرفة أصول الرِّواية وتقييد السَّماع» (ص 249).

يقولون: «ومتِّعنا اللَّهمَّ»، ولفظ الدُّعاء: «اللَّهم متِّعنا».

- يزيدون بعد قول «ولا مبلغ علمنا»: «ولا إلى النَّار مصيرنا، واجعل الجنَّة هي دارنا ومثوانا أو قرارنا».

يغيِّرون آخر الدُّعاء: «ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا» بقولهم: «ولا تسلِّط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا».

3. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ أَوْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**».

أخرجه النَّسائيُّ في «الكبرى» (10405)، وابن السُّنِّي (46)، والحاكم (545/1)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (746)، والبزَّار (3107)، والضِّياء المقدسي في «المختارة» (2320)، وقال: «إسناده حسن»، والطَّبراني في «الأوسط» (3565)، وفي «الدُّعاء» (1046)، وحسَّن إسناده الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (227).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ**».

أخرجه أحمد (42/5)، والبخاري في «الأدب المفرد» (701)، وأبو داود (5090)، والنَّسائي في «الكبرى» (10487)، وابن السُّنِّي (343)، وابن حبَّان (970)، وابن أبي شيبة (29764)، وفي «الإرواء» للألباني (357/3): «إسناده لا بأس به في الشَّواهد».

يضيف بعضهم إلى هذا الدُّعاء:

- «ولا إلى أحد من خلقك»؛ فيقولون: «فلا تكلني إلى نفسي ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين»، لكن زاد الطَّبراني في «الأوسط» (3565) وفي «الصَّغير» (444) وفي «الدُّعاء» (1046) وابن حبَّان في «الثِّقات» (398/6) في

حديث أنس رضي الله عنه: «**وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ..**»، وحديثهم هذا ضعيف؛ آفته سلمة ابن حرب، وشيخه أبو مدرك، فهما مجهولان، كما ذكر أبو حاتم الرَّازي[20]، وقال الهيثمي: «رواه الطَّبراني في «الصَّغير» و«الأوسط»؛ من طريق سلمة بن حرب بن زياد الكلابي عن أبي مدرك عن أنس، وقد ذكر الذَّهبي سلمة في «الميزان» فقال: مجهول كشيخه أبي مدرك؛ وقد وثَّق ابن حبَّان سلمة، وذكر له هذا الحديث في ترجمته؛ وفي «الميزان»: أبو مدرك، قال الدَّارقطني: متروك، فلا أدري هو أبو مدرك هذا أو غيره؟ وبقيَّة رجاله ثقات»[21].

- «ولا أدنى من ذلك» أو «ولا أقلَّ من ذلك» بعد «طرفة عين»، ولا ذكر لها في كتب السُّنَّة.

- يزيد بعضهم في آخر الدُّعاء لفظة: «أبدًا»؛ وهي زيادة لا أصل لها فيما وَقَفْتُ عليه من مصادر، ماعدا ورودها في نسخة خطِّيَّة لكتاب «عمل اليوم واللَّيلة» لابن السُّنِّي، والظَّاهر أنَّها من أوهام بعض النُّسَّاخ، والله أعلم.

4. وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: «**قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**».

أخرجه أحمد (6/171)، والتِّرمذي (3513)، وقال: «وقال: حسن صحيح»، والنَّسائي في «الكبرى» (10708)، وابن السُّنِّي (769)، وابن ماجة (3850)، والحاكم (1/530)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (3426)، وابن منده في «التَّوحيد» (303)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (3337).

جاء في «سنن التِّرمذي»: «عفوٌّ كريم»، والظَّاهر أنَّ لفظة «كريم» مُدْرَجَة مِنْ بعض النَّاسخين أو الطَّابعين، كما بيَّن ذلك العلاَّمة الألباني رحمه الله حيث قال:

«تنبيه: وقع في «سنن التِّرمذي» بعد قوله: «عفوٌّ» زيادة: «كريم»! ولا أصل لها في شيء من المصادر المتقدِّمة، ولا في غيرها ممَّن نقل عنها، فالظَّاهر أنَّها مدرجة من بعض النَّاسخين أو الطَّابعين؛ فإنَّها لم ترد في الطَّبعة الهنديَّة من «سنن التِّرمذي» الَّتي عليها شرح «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (4/264)، ولا في غيرها.

وإنَّ ممَّا يؤكِّد ذلك: أنَّ النَّسائي في بعض رواياته أخرجه من الطَّريق الَّتي أخرجها التِّرمذي، كلاهما عن شيخهما (قتيبة ابن سعيد) بإسناده دون الزِّيادة.

وكذلك وقعت هذه الزِّيادة في رسالة أخينا الفاضل علي الحلبي: «مهذَّب عمل اليوم واللَّيلة» لابن السُّنِّي (95/202)، وليست عند ابن السُّنِّي؛ لأنَّه رواه عن شيخه النَّسائي - كما تقدَّم - عن قتيبة، ثمَّ عزاهُ للتِّرمذي وغيره! ولقد كان اللاَّئق بفنِّ التَّخريج أن توضع الزِّيادة بين معكوفتين كما هو المعروف اليوم [ ]، وينبِّه أنَّها من أفراد التِّرمذي،

(20) «الجرح والتعديل» (4/159).

(21) «مجمع الزَّوائد» (10/287).

وأمَّا التَّحقيق فيقتضي عدم ذكرها مطلقًا؛ إلاَّ لبيان أنَّه لا أصل لها، فاقتضى التَّنبيه»[22].

5. عن عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا، فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**».

أخرجه أحمد (1/391)، والطَّبراني في «الكبير» (10352)، وابن حبَّان (972)، وأبو يعلى (5297)، وابن أبي شيبة (29318)، وابن السُّنِّي (341)، والحاكم (1/509)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (7).

وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (199).

ذكر غيرُ واحد من أهل العلم هذا الدُّعاء منسوبًا إلى النَّبيِّ ﷺ بلفظ «القرآن العظيم»، ولفظة «العظيم» لم تذكر في شيء من كتب السُّنَّة، والقرآن عظيم ومجيد وكريم وعزيز.

6. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: **رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلاَ تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**».

أخرجه أحمد (1/227)، وأبو داود (1510)، والتِّرمذي (3551)، وقال: «حسن صحيح»، والنَّسائي في «الكبرى» (10443)، وابن ماجة (3830)، والبخاري في «الأدب المفرد» (665)، والحاكم (1/519 ـ 520)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ، انظر «صحيح الأدب المفرد» (517).

كلُّ هؤلاء الأئمَّة الحفَّاظ وغيرُهم رَوَوْا الحديث بلفظ: «ولا تمكر عليَّ» غير أنَّ بعض أئمَّة المساجد يقرؤونه: «ولا تمكر بي»، وعند الجمع «ولا تمكر بنا» حتَّى تُخَيَّل للسَّامع أنَّه اللَّفظ النَّبويُّ، وما هو كذلك، وإن كان معناه صحيحًا.

ومعنى: «ولا تمكر عليَّ»: لا يكون مكرك عليَّ، وأعِنِّي على أعدائي بإيقاع المكر منك عليهم لا عليَّ»[23].

والله الموفَّق للصَّواب، وإليه المرجع والمآب، وصلَّى الله وسلم وبارك على عبده ونبيِّه محمَّد وعلى آله وصحبه وعلى التَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الحساب.

(22) «السِّلسلة الصَّحيحة» (7/1011 ـ 1012).

(23) انظر: «مرعاة المفاتيح» لأبي الحسن المباركفوري (8/252).

حسن الظن بالله في الحج

ـ قَالَ الإمام عبد الله بنُ المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

«جئتُ إلى سفيان ـ الثَّوري ـ عشيَّة عرفة، وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تهمِلان، فبكيتُ، فالتفتَ إليَّ، فقال: ما شأنُك؟ فقلتُ: مَنْ أسوأُ هذا الجمع حالاً؟ قال: الَّذي يظنُّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يغفِرُ لهم»

[«حسن الظَّنِّ بالله» لابن أبي الدُّنيا (78)]

سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ وكثرة حجِّه

قَالَ الحسنُ بنُ عمران ـ ابن أخي سفيان ابن عيينة ـ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«حججتُ مع عمِّي سفيان آخر حجَّة حجَّها سنة سبع وتسعين ومائة، فلمَّا كنا بجمع وصلَّى؛ استلقى على فراشه ثمَّ قَالَ: قد وافيتُ هذا الموضعَ سبعين عامًا، أقولُ في كلِّ سنة: اللَّهم! لا تجعله آخرَ العهد من هذا المكان، وإنِّي قد استحيَيْتُ مِنَ الله من كثرةِ ما أسألُه ذلك، فرجع فتوفي في السَّنة الدَّاخلة يوم السَّبت أوَّل يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ودُفن بالحجون...؛ وتوفي وهو ابن إحدى وتسعين سنة»

[«طبقات ابن سعد» (5/497)].

..وسوء الظن بالنفس

ـ قال عَبْدُ اللهِ بنُ بَكْرٍ المُزَني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أَفَضْتُ مَعَ أَبي مِنْ عَرَفَةَ، قال: فَقال لي: يَا بُنَيَّ! لَولا أَنِّي فيهِمْ لَرَجَوْتُ أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ»

[«شعب الإيمان» للبيهقي (7903)]

قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ معلِّقًا:

«قلت: كذلك ينبغي للعبد أن يُزرِيَ على نفسه ويهضِمُها»

[«سير النبلاء» 4/534]

إمساك اللسان في الحج

ـ قَالَ الجُرَيْري رَحِمَهُ اللَّهُ:

أحرم أنس بن مالك من ذات عرق، قَالَ: فما سمعناه متكلِّمًا إلاَّ بذكر الله حتَّى حلَّ، فَقَالَ له: يا ابن أخي! هكذا الإحرام.

[«الطبقات الكبرى» (7/22)]

ـ قَالَ منصور بن المعتمر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«كَانَ شُرَيح ـ هو: ابن الحارث القاضي ـ إذا أحرمَ كأنَّه حَيَّةٌ صمَّاء».

[«الطبقات الكبرى» (6/141)]

لزوم اللغة العربية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وما زال السَّلَف يكرهون تغيير شعائر العرب حتَّى في المُعامَلات، وهو التَّكَلُّم بغير العربيَّة، إلاَّ لحاجَة، كما نصَّ على ذلك مالكٌ والشَّافعي وأحمد؛ بل قال مالك: مَن تَكَلَّم في مسجدنا بغير العربيَّة أُخرِج منه.

مع أنَّ سائرَ الألسن يَجوز النُّطق بها لأصحابها؛ ولكن سوَّغوها للحاجة، وكَرِهُوهَا لغير الحاجة، ولِحِفْظ الإسلام؛ فإنَّ اللَّهَ أنزل كتابه باللِّسان العربي، وبَعَثَ به نَبيَّه العربي، وجعلَ الأمَّة العربيَّة خير الأمم، فصارَ حفظ شعارهم من تَمَام حفظ الإسلام.

[«مجموع الفتاوى» 32/255]

البدعة لا تنقلب طاعة

قال العلاَّمة ابن باديس رحمه الله:

«وكثيرًا ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات، وكالحجِّ إلى الأضرحة، وإيقاد الشُّموع عليها، والنَّذر لها، وضرب الدُّفِّ في بيوت الله، وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات، ويتوكَّؤون في ذلك كلِّه على: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»؛ كلاَّ! ليس بأمانيِّكُم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، فإنَّ البدعَ كلَّها من قسم المخالفات، والمخالفاتُ لا تنقلب طاعات بالنيَّات».

[«الآثار» (2/65 ـ 66)]

أوقات للانفراد

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«ولا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ أَوْقَاتٍ يَنْفَرِدُ بهَا بنَفْسِهِ في دُعَائِهِ وَذِكْرِهِ وَصَلاتِهِ وَتَفَكُّرِهِ ومُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ وَإِصْلاحِ قَلْبِهِ، وما يخْتَصُّ به مِنْ الأُمُورِ الَّتِي لا يُشْرِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، فَهَذِهِ يحْتَاجُ فيهَا إلى انْفِرَادِهِ بنَفْسِهِ: إمَّا في بَيْتِهِ، كَمَا قَالَ طَاوُسٌ: «نِعْم صَوْمَعَة الرَّجُلِ بَيْتُهُ، يَكُفُّ فِيهَا بَصَرَهُ وَلِسَانَهُ»، وَإِمَّا في غَيْرِ بَيْتِهِ».

[«مجموع الفتاوى» (10/426)]

لمن تكون الإمامة؟

ـ قال العلامة ابن باديس رحمه الله:

«فالَّذين أحدثوا في الدِّين ما لم يعرفه السَّلف الصَّالح لم يقتدوا بمن قبلهم فليسوا أهلاً لأَنْ يقتدي بهم مَنْ بعدهم، فكلُّ من اخترع في الدِّين ما لم يعرفه السَّلف الصَّالح فهو ساقطٌ عن رتبة الإمامة».

[«الآثار» (1/320)]



يا حادي الحجاج...

أم أسامة

يا حادي الحجَّاج للبيت العتيق ... ومُيَمِّمًا شطر المقام الأوَّل

قد فزت بالجَمْع الكريم وأهلِه ... فالخطو حُثَّ وللمسيرة عجِّلِ

وصِلِ الضيوف بربِّهم ومضيفهم ... يا فوزهم، وكذا الضيوف تُبَجَّلِ

خذ منِّيَ القلب الذي قد هزَّه ... شوق إلى تلك الديَار فعلِّل

خذ منيَ الروح التي حنَّت إلى ... ذاك النداء من «الخليل المرسَلِ»

ولفطرة تاقت تروم طهارة ... حنفيَّة، والشرك عنه بمعزلِ

توحيدُ ربِّ العالمين شعارُها ... لبيك ربي، والنداء يُجَلْجِلِ

يا حاديًا هلاَّ حملت تحيَّتي ... ونثرتها دمعًا بأرض «المُرْسَلِ»

هلاَّ صنعت من الزهور هدية ... إكليل ورد، ذاك شوقي وَصِّلِ

هلاَّ حملت من الكسر حنينه ... وجعلته جسرًا لمكة موصلِ

أرضُ الطَّهارة، بلدةُ الحرم التي ... قد طُهِّرت في يوم فتح أكملِ

فَهَوَتْ بها الأصنام وهي ذليلةٌ ... كيف المقام و«أحمد» لم يُهْمِلِ!

يا حاديًا لا تنس وَصْلَ رسالة ... مختومة منِّي لطيبة تُحْمَلِ

إنَّ الفؤاد لطيبة يهفو كما ... تهفو القفار لقطر غيثٍ ينزلِ

حرم «الحبيب» ودار هجرة «أحمد» ... أمدينة «المختار» حبِّي فاقبلِ

يا حاديًا قَصُرَ الكلام عن الوفا ... فمشاعري سيل فكيف تَحَمُّلِ؟

أم كيف صبري والأماني بعيدة ... هل يا ترى يومًا أرى ما أُؤَمِّلِ؟

هي دعوة لله أرفعها له ... أن أبلُغَنْ حجًّا ومكة أنزلِ

يا رب فاقبلها ولا تَحْرِمَنْ أحدًا ... دعا مثلها، يا رب أنت مُؤَمَّلِ